منظومة القيم العليا

التوحيد والتزكية والعمران

تأليف

فتحي حسن ملكاوي

المعهد العالمي للفكر الإسلامي

منظومة القيم العليا
التوحيد والتزكية والعمران

منظومة القيم العليا
التوحيد والتزكية والعمران

تأليف

فتحي حسن ملكاوي

١٤٠١هـ-١٩٨١م
1401AH - 1981AC

المعهد العالمي للفكر الإسلامي

الطبعة الأولى ١٤٣٤هـ / ٢٠١٣م

منظومة القيم العليا؛ التوحيد والتزكية والعمران

تأليف: فتحي حسن ملكاوي

موضوع الكتاب ١- منظومة القيم العليا ٢- التوحيد
٣- التزكية ٤- العمران

ردمك (ISBN): 978-1-56564-615-5

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية (٣٦٩٣/ ١٠/ ٢٠١٣)

المعهد العالمي للفكر الإسلامي

المركز الرئيسي - الولايات المتحدة الأمريكية
The International Institute of Islamic Thought
P.O.Box: 669, Herndon, VA 20172 - USA
Tel: (1-703) 471 1133, Fax: (1-703) 471 3922
www.iiit.org / iiit@iiit.org

مكتب الأردن - عمّان
ص.ب 9489 الرمز البريدي 11191.
هاتف: 4611421 6 962+ فاكس: 4611420 6 962+
www.iiitjordan.org

مكتب التوزيع في العالم العربي
بيروت - لبنان

هاتف: 009611707361 - فاكس: 009611311183
www.eiiit.org / info@eiiit.org

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى الشيخ طه جابر العلواني

تقديراً وعرفاناً

فقد تعلَّمت منه كيف يُمكن للعالِم أنْ يكونَ متعلِّماً

في كلِّ فرصةٍ مُتاحَةٍ

وحتَّى آخر لحظةٍ من عُمُره.

المحتويات

المقدمة

في محاضرة مبكرة عن النظام المعرفي الإسلامي حاول كاتب هذه السطور أن يحدد عناصر هذا النظام المعرفي، واجتهد في البحث عن هذه العناصر في الإجابات الإسلامية عن الأسئلة النهائية عن الله، والكون، والإنسان. وكان الاجتهاد الذي عرضه آنذاك أن جميع عناصر النظام المعرفي الإسلامي تتمركز في نهاية التحليل في الإجابات الثلاث الآتية، وما قد يتفرع عنها:

- الإيمان بالله وبوحدانيته سبحانه، وأنّه الخالق المدبر، فله الخلق والأمر.
- الإيمان بأن الله سبحانه خلق هذا الكون وجعل عُمرانه وأحداثه تجري وفق سنن وقوانين قابلة للفهم والاكتشاف، والإنسان مستخلف في عمرانه وفق هدي الله الواحد سبحانه.
- الإيمان بأن قيام الإنسان بعمران الكون وحمل أمانة الخلافة فيه إنما يتحقق بالتزكية لنفس الإنسان ونظام المجتمع.[١]

ومن اليسير أن نجد تناظراً بين هذه المنظومة الإيمانية واجتهاد شيخنا العلواني[٢] في رؤيته للهدي القرآني، والمبادئ الكبرى التي يقود إليها هذا الهدى،

---

(١) ملكاوي، فتحي. ورقة وزعت على طلبة مادة مناهج البحث في التربية الإسلامية في برنامج ماجستير التربية في الإسلام بكلية الشريعة بجامعة اليرموك، الفصل الدراسي الأول ١٩٩٢-١٩٩٣.

(٢) الأستاذ الدكتور طه جابر العلواني، تعرفت إليه في خريف عام ١٩٧٩م في إحدى زياراته المبكرة للولايات المتحدة الأمريكية، ثم توثقت معرفتي به منذ أواخر عام ١٩٨٧م عندما شغل منصب رئيس المعهد العالمي للفكر الإسلامي، واختارني مستشاراً أكاديمياً للمعهد في الأردن، وشاركته بعد ذلك في الحضور والتخطيط لعدد كبير من الأعمال العلمية التي كان بعضها في صورة مشاريع بحثية، وتنظيم مؤتمرات وإدارة دورات تدريبية. وصحبته في كثير من الأسفار في أمريكا وأوروبا وإفريقيا وآسيا. وخبرت فيه كثيراً من المزايا، لا سيّما الرغبة في التعلم من كل =

الذي قاده إلى صياغة ما سمّاه "منظومة القيم الحاكمة"، فحدَّد عناصرَها في ثلاثة مفاهيم قيمية كبرى هي: التوحيد، والتزكية، والعمران. ورأى أنَّ هذه القيم الثلاث تكوِّن معاً مرجعيةً مقاصدية؛ لبيان غاية الحقِّ من الخلق، ومنظومةً معيارية للقيم التي تنبثق عنها سائر القيم الرئيسة والفرعية في دين الله. ولكن هذه المنظومة القيمية هي، في الوقت نفسه، تعبير عن حقائق الأمور ووقائعها، وليست شيئاً خارجاً عنها أو مفروضاً عليها.

وحين نعدّ هذه القيم الثلاث "منظومة" فإنّنا نهدف إلى تأكيد الصلة الوثيقة فيما بين مفردات هذه المنظومة، وتكاملها في تغطية المجال الذي تعمل فيه. فمع أنَّ التوحيد هو رأس الأمر في التفكير الإسلامي، وجوهر التجربة الدينية -حسب اصطلاح المرحوم إسماعيل الفاروقي- وأساس البناء في الحضارة الإسلامية، فإنَّ قيمته -في حياة الإنسان- ربما تبقى حبيسة التجريد الفكري والتصور الغيبي، إذا لم تنبثق عنه التزكية في قلب الإنسان ومشاعره، وفي معاملات الإنسان وأنماط سلوكه. وهذه التزكية تصبح زهداً سلبيّاً وانسحاباً من الحياة العامة، إذا لم تتضافر التمثلات العملية للتوحيد والتزكية في بناء المجتمع وعمرانه الحضاري، وتحقيق الاستخلاف البشري، الذي أراده الله لهذا العالم.

وحين نتحدث عن منظومة، فإننا نؤكد خصائص الترابط والتكامل بين مكونات هذه المنظومة، فإذا كان التوحيد هو العنصر الأساس في النظام العام الاعتقادي وتفرعاته المعرفية، والتزكية هي التمثل العملي للشخصية الإنسانية، وتفرعاتها النفسية والعقلية، والعمران هو الصورة العامة للنظام الاجتماعي

= فرصة سانحة، والملَكَة النقدية، والشخصية المستقلة، وتعلمت منه كثيراً. أسأل الله له موفور الصحة والعافية، والبركة في العمر والعلم والعمل.

والشيخ العلواني من مواليد الفلوجة بالعراق سنة ١٩٣٥م، تخرج في الأزهر بدرجة الدكتوراه في تخصص أصول الفقه، وعمل أستاذاً جامعياً في هذا التخصص، ثم انشغل فترة بالقضايا العامة في الفكر الإسلامي، ثم تحول إلى الاهتمام بالدراسات النقدية في علوم السنة النبوية، وتفرغ في السنوات الأخيرة للدراسات القرآنية. للاطلاع على مزيد من حياة العلواني وأعماله العلمية يمكن زيارة الموقع الإلكتروني الخاص به، وعنوانه: http://www.alwani.net/cv.php.

وتفرعاته الاقتصادية والسياسية، فإنَّنا نكون قد جمعنا في هذه المنظومة جوانب الحياة البشرية، وما يتخللها من صور النشاط الإنساني. ولكننا مع ذلك لا نتحدث عن تكافؤ بين عناصر المنظومة، فثمة أصل تنبثق عنه فروع، فصياغة شخصية الإنسان فرداً وجماعة باتجاه التزكية، وبناء العلاقات والنظم الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع، إنما هو انبثاق من مبدأ التوحيد، بوصفه نقطة البدء في أي تفكير أو أي عمل. وصياغة الشخصية وبناء العلاقات إنَّما تكون تجليات عمليّة لهذا المبدأ.

إنَّ الإسلام عقيدة وعبادة ونظام، والتوحيد هو المبدأ الأول في العقيدة الإسلامية. وقد جاء بناء الإسلام على خمسة أركان، والركن الأول فيه، هو: شهادة أن لا إله الله وأنَّ محمداً رسول الله، لذلك كان التوحيد الذي تمثله هذه الشهادة، قيمةً عليا تقوم عليها، وتتقوَّم بها سائر الأركان الأخرى، وتكون الأركان الأخرى وسيلة للتزكية والتطهير والترقية التي يحتاجها الإنسان فرداً وجماعة. فالصلاة مثلاً وسيلة للنهي عن الفحشاء والمنكر، وإيتاء الزكاة وسيلة لتطهير الجماعة وتزكيتها، والصيام وسيلة للترقي في مراتب التقوى، وأداء فريضة الحج ليشهدوا منافع لهم، وليس لحاجة الله سبحانه إلى شيء يأخذه من الناس، فما يكون فيه من ذبح الهدي وغيره من المناسك لا يعود بالخير والبركة والتقوى إلا على صاحبه.

وإذا كانت القيم العليا معايير لضبط ما ينبثق عنها من قيم فرعية، فسنجد أنَّ مظاهر حياة الإنسان في الدنيا في مجالاته كافة متَّسقة فيما بينها، لانبثاقها من المصدر نفسه، وأنّها متسقة كذلك مع أشواقه وآماله في ما يوَدُّ الحصول عليه في الآخرة. فهو يُحِبُّ اللهَ ورسولَه، ويُحبُّ فعلَ الخير، ويزكِّي مشاعرَه وتعاملاتِه مع الناس، ولا يرجو لهم إلا الخير، ويتَّصفُ بالصدق والأمانة والوفاء وسائر الأخلاق النبيلة، وفي الوقت نفسه، يكون مخلصاً في عمله، قائماً بواجبه، حافظاً لحقوق الآخرين، مقيماً العدل، محارباً الظلم، لا يعيش لنفسه، ولا يعبد هواه.

إنَّ الحياة في عالم تكتنفه هذه القيم، لن تنعكس على حياة الفرد بالاستقرار والسلام النفسي وحسب، وإنَّما تنعكس على بناء مجتمع إنساني يتَّصفُ بالتماسك والتراحم والقوة في داخله، ويتَّصفُ بالصمود والثبات والممانعة تجاه أية قوى تحاول تحدِّيه من خارجه. وقد علَّمنا التاريخ أنَّ هذا المجتمع كان عصيّاً على محاولات الغزو الخارجي ما احتفظ بتلك القيم والمقومات، وأنَّ عمليات التبشير والاستعمار في التاريخ الحديث كانت تستهدف هذه القيم في الأساس، لإضعاف المجتمع الإسلامي من داخله، عن طريق الترويج لصُوَرٍ بديلة للحياة، تتمحور في الإنجاز المادي، بِوَصْفه معياراً للحضارة والتقدم. وقد احتل مركز القيادة في المجتمعات الإسلامية، من لم يُنَشَّؤوا على منظومة القيم الإسلامية، ولا يرون من سُبُلٍ في بناء المجتمع وتنظيمه إلا ما أُرُوا في المجتمع الغربي، فهم يستوردون منه عالَمَ الأشياء، ومعها ما يرتبط بها من عالَم الأفكار، ومن يصنِّعُها من عالَمِ الأشخاص، ومع كل ذلك -بطبيعة الحال- نظم الإدارة والعلاقات، وما تنطوي عليه من قيم وتصورات.



ومع شيوع هذه الصور البديلة، وتربية الأجيال الناشئة عليها، وربط أحلام الشباب بها، اخْتلَّتْ منظومة القيم، التي كانت تمثل مرجعية التصور والسلوك، واختلطت على الناس الرؤى، وفَقَد المجتمع هُويَّتَه، فأصبح تابعاً يلهث وراء سراب بقيعة! فلا هو قد بنى قاعدة للحضارة والتقدم المادي مع الاحتفاظ بهويته وقيمه، ولا هو أسهم في البناء والإنجاز الحضاري، بالقدر الذي يكسبه موقعاً مشرفاً بين المجتمعات الأخرى، وإنما بقي كنزاً مكشوفاً للمواد الأولية ينْهَبُه السارقون، وسُوقاً استهلاكية مفتوحة لأشياء الآخرين وقِيَمِهِم ونُظُمِهِم، بكل تناقضاتها، وبكل ما يدفع إليها من طموحات الهيمنة والاستحواذ.

ولعل من السهولة واليسر استخلاص الفائدة المترتبة على هذا الجمع بين عناصر هذه المنظومة، وأهميته في بيان الارتباط العميق بين هذه العناصر: التوحيد، والتزكية، والعمران، فتوحيد الله عزَّ وجلَّ حقيقة مطلقة يقود إليها التفكُّر والتأمُّل والبداهة العقلية، ويريح الإنسان من حالات الحيرة والقلق والضلال، التي ينتهي إليها أيُّ تصوُّر آخر غير التوحيد. والتزكية عملية ارتقاء بالنفس الإنسانية وسموٌّ بها، وتطهيرٌ للمجتمع الإنساني من ألوان الفساد والانحراف، وتطهير للمال وتنميتُه وتدويرُه بين الناس، فيتحقَّق بذلك من صفاء النفس وسلامة الصدر، وتعزيز مؤشرات المسؤولية والتكافل الاجتماعي، ما يبني مجتمعاً موحداً متماسكاً في بنيته وأنظمته. أمَّا العمران فهو سعي بشري لتوظيف طاقات الإنسان في بناء حياة عامرة بالخير، تحقق مقاصد الخلافة في الأرض واستعمارها، واستخراج طاقاتها واستعمالها في تيسير سبل الحياة، وتطوير الحضارة البشرية وترشيدها. وهكذا تستكمل هذه المنظومة الثلاثية عناصر رؤية العالم في التصور الإسلامي فيما يتعلق بالله والإنسان والكون.

ليس ثمّة شك في أنَّ العقيدة الإسلامية تجعل التوحيدَ الحقيقةَ الكبرى في هذا الوجود، وهي حقيقة تستمد قيمتَها من ذاتها، وغيرُها من الحقائق إنّما يَصدُر عنها. والكون كلُّه خاضع بالفطرة لمقتضيات التوحيد، فإذا أراد الإنسان أن ينسجم مع فطرة الكون، فلا بدَّ له من أن يتزكَّى، ويتوجَّه إلى الله وحده بالعبادة، فهو سبحانه "إلهُ النَّاس" (توحيد العبودية)، مثلما هو جلّ شأنه "ربُّ النَّاس" (توحيد الربوبية) و"مَلِكُ النَّاس" (توحيد الحاكمية). والتزكية موضوعها الإنسان المستخلف، وهو موضوع الإصلاح في الواقع الإنساني، وَفقاً لما يهدي إليه الخالق الواحد من رعاية مخلوقاته وتدبير شؤونها؛ ومن ثَمَّ فإنّ التزكية هدف العُمران ووسيلته، وهي تدخل في صميم البناء الاجتماعي والعمران البشرى.

في هذا الكتاب ثلاثة فصول، تناول كل فصل واحدة من ثلاثية منظومة القيم العليا. وسلك المؤلف فيها منهجية محددة تقوم على اعتماد القرآن الكريم

مرجعية أساسية في الحديث عن كل واحدة منها، مع إضافات محدودة من الحديث النبوي الشريف، لا سيما ما ورد في صحيحي البخاري ومسلم. وفي حالات نادرة من كتب الحديث الأخرى؛ إذ لا يكون في معنى الحديث مشكلة. ومع ذلك فقد كان من المناسب التعرض لجهود بعض العلماء في تناول هذه القيم. والهدف من اعتماد المرجعية القرآنية أساساً لفهمنا لمنظومة القيم هذه هو التأكيد أنَّ هذه المرجعية تكفي وتفي بما يلزم من عرض ومعالجة.

وقد أشرنا في عدد من المواقف إلى أن القيم العليا الثلاث: التوحيد والتزكية والعمران، هي أساس كل القيم الفرعية الأخرى، في مجالات الإيمان والاعتقاد، وتربية النفس، وبناء الشخصية الإنسانية، ونظم الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، وفي علاقات المجتمع المسلم الداخلية والخارجية. ومع أن هذه القيم الثلاث هي القيم العليا في الإسلام، فإنها في الوقت نفسه قيم إنسانية عالمية، سواءً في منطق المؤمنين بالله الواحد من أتباع الرسالات، أو في منطق دعاة التقدم والنهوض الحضاري؛ على مستوى المجتمعات الإنسانية، أو على الساحة العالمية. وتأكيد الصفة الإنسانية العالمية لهذه القيم لا ينفي أن صور تمثلها لدى أبناء الأديان الأخرى والحضارات تتلون برؤى العالم التي تعتمدها هذه الأديان أو الحضارات، ومع أنَّ النصرانية واليهودية تعدّان من الديانات التوحيدية، فإنّ التوحيد فيهما قد اختلط بأنواع من الشرك، كما نسب إلى الله الواحد سبحانه ما لا يليق به من الصفات. ومع أن بعض دلالات التزكية والعمران نجدها في الحضارات الأخرى، بما في ذلك الحضارة الغربية المعاصرة -ربما تحتاج عناوين متعددة- فإنَّ النظريات النفسية، والتربوية، والاجتماعية السائدة قد لوَّثت تلك الدلالات بألوان من الانحراف والتحيّز والفساد.

ومن الجدير بالذكر أنَّ بعض فقرات هذا الكتاب قد ظهرت في فصل مبادئ المنهجية الإسلامية في كتاب "منهجية التكامل المعرفي"، وقد جاءت هناك في مجال توضيح العلاقة بين المبادئ والقيم، وتقديم التوحيد،

والتزكية، والعمران، بوصفها مبادئ تحكم التفكير المنهجي، والبحث المنهجي، والسلوك المنهجي. أما في هذا الكتاب فقد جاءت بوصفها منظومةً من المعايير التي تتكامل فيما بينها في التأسيس؛ لرؤية كلية تحكم الوجود الإنساني في أدائه لوظيفة الخلافة في الأرض، وهي معايير توجِّه السلوك البشري أفراداً ومجتمعات، وتبني الحضارة الإنسانية في جوانبها المادية والمعنوية، وترشِّدُها بهداية الوحي الإلهي، والأسوة النبوية. وقد جاءت هنا في صورة فصول أكثر استيعاباً وتفصيلاً، تسوغ لنا إصدارها في هذا الكتاب، الذي نُهْدِيه إلى شيخنا الأستاذ الدكتور طه جابر العلواني، بوصفه البادئ -في حدود علمنا- في سبك هذه المنظومة على هذه الصيغة التكاملية، مع أن من السهل أن نقيم تناظراً كاملاً بين هذه المنظومة الثلاثية والعناصر الرئيسة الثلاثة في النظام المعرفي الإسلامي: الله، والكون، والإنسان، كما أشرنا إلى ذلك من قبل. وعليه تكون القيم العليا الحاكمة هي: توحيد الله، وعمران الكون، وتزكية الإنسان.

إنّ منظومة التوحيد والتزكية والعمران -كما يراها الشيخ العلواني- منظومة مقاصدية قبل أن تكون منظومة قيمية؛ فهو يريدها منظومة حاكمة على كل ما يمكن أن يندرج تحت الفقه الإسلامي والفكر الإسلامي؛ لأنَّه بغير ذلك لا يكون فقهُنا إسلامياً، ولا يكون فكرُنا إسلامياً. والشيخ العلواني بعقليته الشرعية النقدية يريد هذه المنظومة مدخلاً منهجياً لجهود تنقية التراث الإسلامي مما اختلط به من تراث أهل الكتاب في وقت مبكر، ثم من تراث الأمم الأخرى بعد ذلك، ويريدها مدخلاً مقاصدياً لمراجعة العلوم النقلية، وقضاياها التاريخية والجغرافية، قبل أن تكون مدخلاً قيمياً إسلامياً في الحكم على العلوم المعاصرة ومعايرتها.

ومع ذلك فقد كان حديث الشيخ العلواني عن هذه المنظومة حديثاً عن "المقاصد القرآنية العليا الحاكمة... بوصفها قيماً عليا ومبادئ حاكمة، لا تقتصر على قضايا التكليف الشرعي والأحكام الجزئية، أو تعالج المقاصد بوصفها باباً

مهماً من أبواب أصول الفقه، وإنَّما تتجاوز ذلك إلى استلهام الخطاب القرآني في بيان غاية الحق من الخلق، وفهم حقيقة الفعل الإنساني وعلاقته بالخطاب المقاصدي."[1]

وهو يرى أن هذه "المقاصد العليا الحاكمة يمكن أن تساعد -أيضًا- على تطوير نظرية معرفية عامة في العلوم الشرعيَّة كلها، وكذلك في العلوم الاجتماعية..."[2] وأنَّها الكليات القرآنية الكفيلة بتشغيل سائر المنظومات... الفقهية والقانونية، وإعادة بناء الشخصية الإسلامية الفردية والاجتماعية، وتحويلها إلى نموذج ومثال يمهِّد لعالمية الإسلام القادمة بإذن الله، وظهوره على الدين كله، لأنَّ المقاصد العليا الحاكمة يمكن أن تمثِّل بجملتها أو ببعضها على الأقل مشتركات إنسانيَّة."[3]

وقد تعاملنا مع هذه المنظومة في مقام آخر[4] بوصفها منظومة من **المقاصد، والقيم، والمبادئ**، في آن واحد؛ ذلك أننا ننطلق، في أيِّ أمر من الأمور، من نقطة بدء محددة، ونتَّجِهُ في حركتنا محكومين باستقامة المنهج والطريق القويم، لنصل إلى الغاية المتوخاة والمقصد المنشود. فالتداخل في منظومة المفاهيم الثلاثة: المقاصد، والقيم، والمبادئ، هو تداخل تكاملي يستدعي كلُّ مفهوم منها المفهومين الآخرين، وهو تكاملٌ منظومي تراتبي، يحدد موقع كل مفهوم من المفهومين الآخرين. وسياق الحديث هنا هو الأفعال البشرية، فحينما يقوم الإنسان بفعل محدد، فإنَّه -حين يبدأ الفعل- لا بد أن يستحضر المعايير والضوابط الحاكمة لسلامة البدء، وسلامة السير في الاتجاه، وسلامة المقصد من الفعل، حتى يتحقق له ذلك المقصد.

---

(١) العلواني، طه جابر. من التعليل إلى المقاصد القرآنية العليا الحاكمة، **إسلامية المعرفة**، العدد ٤٦-٤٧، السنة الثانية عشرة، خريف وشتاء ٢٠٠٦-٢٠٠٧، ص ٦.

(٢) المرجع السابق، ص ١٩

(٣) المرجع السابق، ص ٢٢

(٤) ملكاوي، فتحي حسن. **منهجية التكامل المعرفي: مقدمات في المنهجية الإسلامية**، هيرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ٢٠١١م.

ومع ملاحظتنا للتداخل بين دلالات المفاهيم الثلاثة في الاستعمال، فإنّ بإمكاننا ملاحظة التشابه في الوصف، فنحن نصف المقاصد بأنها مقاصد حاكمة، والقيم بأنها قيم حاكمة، والمبادئ بأنها مبادئ حاكمة؛ ذلك أنها تشترك في كون الفعل الإنساني محكوما لها في ابتدائه واتجاهه وغايته. وفي الوقت نفسه نصف المنظومة بأنها عليا: منظومة المقاصد العليا، ومنظومة القيم العليا، ومنظومة المبادئ العليا. فليس لها ما هو أعلى منها، ولكل منها ما هو أدنى منها، متفرع عنها.

لقد كانت مادة هذه الفصول في الأساس هوامش على عبارات الدكتور طه العلواني الخاصة بمنظومة القيم العليا: التوحيد والتزكية والعمران، التي ردَّدها في كثير مما كتب، لكنَّه لم يُفَصِّل فيها تفصيلاً يشفي الغليل. فإليه، بعد فضل الله سبحانه، يعود الفضل في إثارة فضول المؤلف للتفكير والكتابة في الموضوع. ومع ذلك فإنَّ المؤلف لا يدَّعي أنه ينطق بلسان الشيخ العلواني، أو يكتب بقلمه، أو أنه جاء بالقول الفصل، أو أنَّه قد أشبع الموضوع بياناً. وحسْبُنا هنا أن نبقِي الباب مفتوحاً لمزيد من البيان والإيضاح، والمراجعة والاستدراك. ولعلّ أهمّ تمثلات الحاجة في مثل هذه المعالجات التنظيرية، إنما تكون لصياغة المواقف التطبيقية، وضرب الأمثلة العملية، التي تؤدي وظائفَ تربوية وتخدم أغراضاً تعليمية.

ونأمُل أن يكون هذا الكتاب الموجز مقدمة لكتاب مرجعي آخر يجري إعداده في "منظومة القيم في الرؤية الإسلامية"، نتوسع فيه في بيان مفهوم القيم وأهميّتها وخصائصها، وتصنيف القيم وفق معايير محددة للتصنيف، وتعلم القيم وتعليمها.

والله الموفق، وهو سبحانه الهادي إلى سواء السبيل.

فتحي حسن ملكاوي

الفصل الأول

التوحيد

الأساسُ الأوَّل في منظومة القيم العليا

التوحيد
الأساسُ الأوَّل في منظومة القيم العليا

تمهيد

تشمل منظومة القيم الحاكمة، حسب رؤية شيخنا الدكتور طه العلواني ثلاث قيم أساسية هي: **التوحيد، والتزكية، والعمران**؛ فلا معنى للدين الإلهي بغير توحيد الله الخالق، وتزكية الإنسان المخلوق، لتمكنيه من حمل أمانة الخلافة في الكون، وعُمران هذا الكون وبناء الحضارة فيه. فالإنسان المخلوق هو المخاطب بالوحي المنزَّل من الخالق الواحد، يؤمن بوحدانيته، ويقرُّ بالعبودية له، ويوظِّف طاقته العلمية والعملية في إعمار الأرض وترقية الحياة البشرية عليها، وهو بذلك يحقق مقصد التزكية: تطهيراً، وتنمية لنفسه، وماله، وعلاقاته.

ويمكننا أن نشتق من هذه المنظومة، التي تبدأ بتوحيد الخالق، ثم بتزكية الإنسان، وتعمير الكون، كل القيم الأخرى، فالإنسان الذي يؤمن بوحدانية الله يجد الوحدانية، والعبودية أمرين متلازمين، يرتبطان ارتباطاً مباشراً، ويجعلان الإنسان ملتزماً بتعليمات الوحي القرآني في الاتصاف بالتقوى، وإقامة مجتمع العدل، والأخوة الإنسانية، وأداء أمانة الاستخلاف، وتوظيف طاقاته في إعمار الكون وبناء الحضارات.

إنَّ التعامل مع عناصر منظومة: التوحيد، والتزكية، والعمران، لتأكيد تكاملها وترابطها، لا يجعلها بالضرورة في مستوى واحد من القيمة والأهمية؛ إذ يبقى

التوحيد رأس الأمر كله في الإسلام، فبه يتقوَّم جهد الإنسان في الدنيا وجزاءُه في الآخرة. فالتوحيد كان دائماً أساس الدين عند الله، ورسالة الله إلى الأنبياء والرسل أجمعين: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] فالنطق بالشهادتين: "لا إله إلا الله، محمد رسول الله" هو باب الدخول في الإسلام، للبدء في بناء "أركان الإسلام الخمسة"، والتحقق بالإسلام: عقيدة وعبادة ونظام حياة، وبمضمون الشهادتين تتحدد سائر "أركان الإيمان الستة"، والترقي بها لإطلاق طاقات الإنسان الفكرية والوجدانية، وتحريرها من قيد المادة، للسمو بها في آفاق التوازن بين المادة والروح، وعتقها من سجن الدنيا لتنطلق في فضاءات الدنيا والآخرة، وتخليصها من أوهام الخرافة إلى يقين العلم. وعند تحقق مقتضيات أركان الإيمان تنعقد أخوة المؤمنين في بناء أمة واحدة، تسهم في ترشيد سعي الإنسان في تحقيق الخلافة والعمران.

ولا تقف دلالات التوحيد عند تحقق مقتضيات الإسلام والإيمان، بل تتعداهما إلى مرتبة الإحسان؛ إذ يكون انطلاق العقل، والقلب، والجوارح في مراتب التزكية وفي أبواب الخير، للتطهُّر من شبهات الشرك في الاعتقاد أو السلوك.

ونقف في هذا الفصل على موضوع التوحيد بوصفه قيمة حاكمة كبرى، ونشير إلى صورة التوحيد كما تكشف عنها النصوص المرجعية في القرآن الكريم وفي السنة النبوية الشريفة، ثم نحاول تتبع صور المعالجة المتعددة التي تناولت موضوع التوحيد عبر تاريخ الأمة المسلمة. ثم نشير إلى قيمة التوحيد فيما يتركه من آثار في النفس البشرية، والحياة الاجتماعية، والواقع الإنساني في أبعاده المعنوية والمادية.

أولاً: ألفاظ التوحيد في القرآن الكريم

ظاهرة الدين أصيلة في حياة البشرية منذ فجر تاريخها، ولكن علماء الأديان يتفاوتون كثيراً في فهم التطورات التي طرأت على هذه الظاهرة. وينطلق هؤلاء

العلماء في دراساتهم الأنثروبولوجية من الافتراض بأنَّ ثمَّة شعوباً بدائية ظهرت في بعض مراحل التاريخ، وكوَّنت لنفسها معتقدات معينةً عن الآلهة، وأن هذه المعتقدات مرَّت في أطوار ثلاثة هي: تعدُّد الآلهة، والترجيح بين الآلهة المتعددة، والتوحيد. ويستعرض عباس العقاد مقولات علماء الأديان، ويرجِّح "أنَّ أطوار العقيدة الإلهية تشعبت بين الناس، فلم تطَّرد على مراحل متشابهة في جميع الأمم ولا في جميع الأديان."(١)

لكنَّ المرجعية الإسلامية التي يقرِّرُها القرآن الكريم والسنة النبوية حاسمةٌ في أنَّ التوحيد كان جوهر العقيدة منذ خُلقَ آدمُ أبو البشر، وأنَّ أبناء آدم من بعده كانوا ينسون عقيدة التوحيد، وتختلط معتقداتهم بالأوهام والأساطير، فكانت سنَّة الله سبحانه أن يرسل إليهم أنبياء ورسلاً، يحاولون إعادة الناس إلى الإيمان بالله وحده والالتزام بعبادته، وفق ما شرع. فالنسيان والجهل مع طول الأمد، سَّببا الانحرافَ عن التوحيد الحق، كما بيّن ذلك الحديث الصحيح الذي جاء في تفسير قوله سبحانه: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ [نوح: ٢٣] من أنَّ هذه كانت أسماء لبعض الصالحين من ذرية نوح، وقد أقام أتباعهم لهم تماثيل تذكِّرهم بهم، ومع الزمن نسي الناس الصالحين، وأخذوا بعبادة هذه التماثيل."(٢)

---

(١) العقاد، عباس محمود. **الله: كتاب في نشأة العقيدة الإلهية**. القاهرة: دار المعارف، الطبعة السابعة، (د. ت.)، ص ٣٩.

(٢) في صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما في قول الله تعالى: سورة نوح الآية ٢٣ قال: "هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم: أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً وسموها بأسمائهم، ففعلوا، ولم تعبد، حتى إذا هلك أولئك ونسي العلم، عبدت". انظر:
- البخاري، الإمام محمد بن إسماعيل. **صحيح البخاري**. دمشق: دار ابن كثير، ط١، ٢٠٠١م، كتاب التفسير، باب "ودّا ولا سواع ويغوث ونسراً" من تفسير سورة نوح،، حديث رقم ٤٩٢٠، ص١٢٤٨.

ويعترف كثير من العلماء غير المسلمين كذلك بأنَّ مفهوم التوحيد في الإسلام متميِّز تماماً عن مفهومه فيما يسمّى بالديانات التوحيدية الأخرى،(1) سواءً في تصوُّرها للإله الواحد أو بانعكاسات هذا التصور على علاقة الخالق بالمخلوقات، أو بعلاقة الناس مع بعضهم بعضاً.

وقد كان من عدل الله ورحمته بالناس أن بعث الأنبياء والرسل إلى جميع الأمم، برسالة التوحيد: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ١٦٣ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ١٦٥﴾ [النساء: ١٦٣-١٦٥] ويوضح القرآن الكريم بصورة حاسمة أنَّ جميع الأنبياء جاءوا بدين واحد، وإن اختلفت الشرائع، فتوحيد الله سبحانه ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٥، وهود: ٥٠، ٦١، ٨٤، والمؤمنون: ٢٣، ٣٢].

وتوحيد الدين الجامع للناس، هدف رسالات الأنبياء والرسل، ومن ثَمَّ فإنَّ المؤمنين بالله حقيقة الإيمان، بوحدانيته وألوهيته وصفاته، لا يفرِّقون بين أحد من رسل الله، ولا يختلفون في ذلك ولا عليه. ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥]. أما المشركون بالله آلهة أخرى، معه أو من دونه سبحانه، فإنَّ ما هم فيه من جهل، وظلم، واستكبار، وما بَنَوْه من نظم ومصالح، يُعمي قلوبهم عن التوحيد، فيكبر في نفوسهم ما يُدعَوْن إليه من توحيد، ويصعب عليهم الإيمان به، مع أنَّ التوحيد هو الفطرة الأصلية، المنسجمة مع الحقائق الكونية والطبائع النفسية. وفي ذلك يقول الله سبحانه: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ

(1) Moreland, J. P. and William Lane Craig. *Philosophical Foundations for a Christian Worldview*. Downers Grove, Ill.: InterVarsity Press, 2003, p. 595. See also:
- Schwarz, John. *The Complete Guide to the Christian Faith*. Minneapolis, MN: Bethany House Publishers, 2001, p. 184.

أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ [الشورى: ١٣].

وتُتَوِّجُ سورة الصمد في القرآن الكريم كلَّ حديث عن أحَدِيَّة الله سبحانه وواحديته وتوحيده، ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الصمد: ١-٤] فالله سبحانه "أحد" ليس له نظير ولا شبيه ولا كفو. والله سبحانه واحد، وكل ما عداه يتعدد. ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [البقرة: ١٦٣] ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۖ﴾ [النساء ١٧١] ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [المائدة: ٧٣]، ﴿وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [إبراهيم: ٥٢] ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الحج: ٣٤] ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [التوبة: ٣١]. فهو على هذا الأساس أحَدٌ وواحد في ذاته، متفرد في صفاته، وهو الخالق الواحد لا خالق غيره. وهو الخالق: الواحد، الرازق، المدبر، الذي يرعى شؤون ما خلقه في السماوات الأرض وما بينهما، فلا رازق ولا مُدَبِّر إلا هذا الخالق الواحد. وهذا الإله الواحد هو الربُّ الواحد لكل شيء ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ﴿٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ﴿٥﴾﴾ [الصافات: ٤-٥].

ولا نقصد في هذا المقام أن نحصر كل الآيات القرآنية التي أشارت باللفظ إلى أحدية الله وواحديته سبحانه، فدلالة التوحيد المطلق سواءً باللفظ المباشر، أحد وواحد، كما في الآيات الكريمة التي أوردناها أعلاه، أو بالدلالة الحصرية على ذاته العلية ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ [الحشر: ٢٢] تغني عن الاستطراد في الاستشهاد بكل آيات القرآن الكريم المختصة بذلك.

وتوحيد الله في هذه النصوص سواءً في الدلالة اللفظية أو الاصطلاحية، إنما يكون بنفي التعدد والمماثلة والشريك والكفء؛ فمن حيث العدد هو واحد في الخلق والتدبير ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۖ﴾ [النحل: ٥١] فهو الذي يخلق، وهو الذي يرعى ويدبر: ﴿لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾، ولا يتجزأ الواحد إلى ثلاثة، أو تتجمع الثلاثة في واحد: ﴿وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيْرًا

لَكُمْۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [النساء:١٧١]، ولو كان في الوجود آلهة متعددة، لتمايزت عن بعضها في القوة، ولاختلفت عن بعضها في الإرادة، وسوف تكون النتيجة فساد هذا الكون واضطرابه: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[الأنبياء: ٢٢]. ولو كان في الوجود خالق مع الله الواحد لاستقلَّ كلُّ إله بما خلق، وأدار شؤون مخلوقاته على طريقته، فاختلفت قوانين الكون وسننه، ولكان أحد هؤلاء الآلهة أرفع شأناً، وأعلى سلطاناً من غيره، ولساد بينهم التدافع والتغالب، ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١].

ولما كان الوجودُ مستقراً في تصريف شؤونه، منتظماً في تدبير أموره، يحكمه قانون واحد، وتدبير واحد، فذلك دليل على أنَّ الخالق والمدبِّر واحد، له الخلق والأمر، تبارك الله ربُّ العالمين. وقد وردت الدلالة على التوحيد الخالص في القرآن الكريم في مناسبات متنوعة، منها على سبيل المثال:

- تأكيد وحدة الدين في قصص الأنبياء، فجميع الأنبياء والرسل جاءوا بدين التوحيد، وقد يأتي ذلك في تقرير شامل عن الأنبياء والرسل جملةً، مثل قوله سبحانه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥]، وقد يأتي ذلك في تقرير حقيقة التوحيد التي جاء بها كل رسول باللفظ نفسه؛ مثل ما ورد في سورة الأعراف عن نوح، وهود، وصالح، وشعيب ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩]، ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًاۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف:٦٥]، ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف: ٧٣]، ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًاۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف: ٨٥] وقد ورد اللفظ نفسه ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ في سياق مماثل ثلاث مرات أخرى في سورة هود، ومرتين في سورة المؤمنون، ومرات متعددة في سور أخرى بلفظ قريب.

- استنكار الشرك بالله سبحانه، وإقامة الحجة على المشركين، عند الإشارة إلى عظمة الخلق، وإحكامه، وانتظام الظواهر والسنن: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [النمل: ٦٠ - ٦٣].

- الربط بين التوحيد وحصر الألوهية بالله سبحانه عند الإشارة إلى أسماء الله وصفاته عز وجل: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [طه: ٨] ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ﴾ [المائدة: ٧٣]، ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣]، ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ٦]، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٦]، ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [ص: ٦٥].

ويستشهد كثير من العلماء بالآيات القرآنية الكريمة على ثلاثة أنواع من التوحيد: توحيد الربوبية؛ بمعنى أنَّ الله ربُّ العالمين، وهو وحده المتفرد بالخلق والتدبير والتسيير، والإحياء والإماتة...، ومثالها من الآيات: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٧] وتوحيد الألوهية؛ بمعنى الإيمان بأنَّ الله وحده الذي يستحق العبادة، ويكون له الخضوع والطاعة، وإليه وحده يتوجه الدعاء والرجاء، وعليه يكون التوكُّل، وله تكون المحبة... ومثالها قوله سبحانه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] وتوحيد الأسماء والصفات؛ بمعنى الإيمان بأنَّ الله متَّصفٌ بجميع صفات الكمال، ومنزَّهٌ عن جميع صفات النقص، ومتفرِّد بصفاته على جميع المخلوقات، بما وصف الله به نفسه من الأسماء والصفات، وما وصفه به رسولُه ﷺ، بلا زيادة ولا نقص،

وبلا تشبيه، ولا تمثيل، ولا تجسيم، ولا تعطيل، ولا تحريف... ومثالها قوله سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

ويمكن الاستشهاد بآيات القرآن الكريم على تجليات التوحيد في أي شأن من شؤون الدين، أو الأمة المنتمية إلى هذا الدين، فمثلاً يؤكد القرآن الكريم أنّ توحيد الله سبحانه يقتضي وحدة الأمة الإسلامية، فالوحدة صفة أصيلة في الأمة الاسلامية، وهي فريضة من فرائض الدين، ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢]. ويقتضي الانتماء إلى الدين الاتصاف بهذه الوحدة الجامعة لأبناء الأمة الواحدة. ولكن القرآن -في هذه الآية تحديداً- يجمع وحدة الأمة مع اتصافها بالعبودية للرب الواحد. والعبودية هنا هي معنى شمولي تتحقق معه صفة الإحسان في كل عمل يقوم به الإنسان: "أن تعبد الله كأنَّك تراه فإنْ لم تكن تراه فإنَّه يراك."(١)

لكن وحدة الأمة بالمعنى الديني الإسلامي، هي جزء من وحدة الإنسانية في كامل أعراقها وألوانها. وتتجلى هذه الوحدة في وحدة الأصل والنشأة البشرية، فالله سبحانه رب جميع البشر وهو واحد لا شريك له ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ﴾ [الصافات: ٤]، والله الواحد بدأ خلق الجنس البشري من نفس واحدة، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء: ١]. وينبثق عن هذه الوحدة المساواة الكاملة بين البشر في كرامتهم الإنسانية، وفي وحدة المصير إلى الله سبحانه، ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [الزمر: ٧].

وتقترن وحدة الإنسانية بوحدة الحياة البشرية في الدنيا، فكما كانت هناك لحظة بدء للحياة البشرية على الأرض، فإن ثمة لحظة نهاية لها عند انتهاء هذه

---

(١) البخاري، **صحيح البخاري**. مرجع سابق، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان. حديث رقم ٥٠، ص ٢٣، وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه، انظر:
- مسلم، الإمام مسلم بن الحجاج. **صحيح مسلم**، الرياض: بيت الأفكار الدولية، ١٩٩٨، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان، حديث رقم ٩، ص٣٧.

الحياة وبدء الحياة الآخرة، وبين اللحظتين بشر يولدون فتبدأ حياتهم، وآخرون يموتون فتنتهي حياتهم: ﴿وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ﴾ [آل عمران: ١٥٦] وعند الله سبحانه أجل مسمى لكل أمة، وأجل مسمّى لكل نفس ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [نوح: ٤] فوحدة الحياة أثر من تجليات الوحدة التي يتصف بها مالك الحياة سبحانه وتعالى.

أما وحدة الحقيقة فهي الأساس الذي تقوم عليه نظرية المعرفة في الرؤية الإسلامية، فالله سبحانه هو الحق، وهو واحد، فلا تتعدد الحقيقة، والحقيقة كامنة في أشياء هذا العالم، والله سبحانه يطلعنا بالوحي عن شيء منها، ويأمرنا باكتشافها. وسنجد دائماً أن الوحي لا يتنزل في أي شيء أو أمر بصورة تختلف عن حقيقته الواقعية التي خلقها خالق الحقائق سبحانه. وقوانين الطبيعة هي سنن الله في خلقه، يتحدث عنها الله سبحانه، فمنها ما يعرضه الله سبحانه للتفكر والتدبر، ومنها ما يطلب منا اكتشافه وصياغته، وسنجد تطابقاً منطقياً وعملياً كاملاً بين معطيات الوحي ومعطيات الاكتشاف في نهاية مطاف البحث. وهذا التطابق هو ما نعبر به عن وحدة الحقيقة، التي ترفض إمكانية حدوث تناقض بين الحقائق الواقعية ونصوص الوحي، أو بين معطيات العقل البشري ونصوص الوحي، كما تُبقي الباب مفتوحاً لأعادة الفهم البشري بظهور الجديد من الأدلة، حتى تستقيم دلالات وحدة المعرفة.

وسنعود إلى الحديث التفصيلي عن بعض تجليات التوحيد في مجالات الحياة الأسرية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعلمية والفنية... انطلاقا من القرآن الكريم، عندما نستعرض بعض الكتب التي تحدثت عن التوحيد موضوعاً، والتوحيد علماً، لا سيّما التجليات التي عرضها المرحوم الفاروقي في كتابه عن التوحيد وتمثلاته في الفكر والحياة.

ولا شك في أنَّ حضور علاقة الخالق الواحد سبحانه، في قلب الإنسان وعقله، حباً لله، وتعظيماً لأحكامه، وانقياداً لشرعه، يثمر في ضبط مشاعر الإنسان

وأهوائه وشهواته، وينزع أسباب الفرقة والانقسام والفتنة فيما بين المؤمنين، ومن ثم يجتمع أبناء الأمة على عقيدة التوحيد. وعلى هذا الأساس يمكن أن نفهم واقع الأمة المعاصر الذي يتصف بالضعف والانقسام والتمزق، مما يؤشر على أنَّ الأمَّة تعاني من خلل في عبوديتها لله سبحانه. ولن تتنزَّل رحمة الله على هذه الأمة بتوحُّدِها واجتماع كلمتها حتى تتحقق بالعبودية والتقوى، ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١١٨ - ١١٩].

ثانياً: ألفاظ التوحيد في السنة النبوية الشريفة

وكما تعاملنا مع آيات القرآن الكريم، فإنَّنا لن نستقصي جميع الأحاديث التي تشير بصورة مباشرة أو غير مباشرة إلى التوحيد، ويكفي أن ننوِّه بجهود بعض علماء الحديث في تعاملهم مع النصوص الحديثية المختصة بالتوحيد. فقد أفرد الإمام البخاري في صحيحه كتاباً عن التوحيد، ضمَّ مائة وثلاثة وتسعين حديثاً صنَّفها في ثمانية وخمسين باباً. ومما يلفت النظر أنَّ الإمام البخاري جعل "كتاب التوحيد" آخر كتب الصحيح وعددها سبعة وتسعون كتاباً.[١]

أما الإمام مسلم فلم يفرد التوحيد بكتاب خاص، وإنما جعل الكتاب الأول من صحيحه بعنوان: كتاب الإيمان، وقد ضمنّه عدداً من الأحاديث التي أوردها الإمام البخاري في كتاب التوحيد، أما الأحاديث المشتركة الأخرى الموجودة في هذا الكتاب من صحيح مسلم، وكتاب التوحيد في صحيح البخاري، فقد أوردها الإمام مسلم في كتب متفرقة أخرى، ولا سيما كتاب الذكر والدعاء.[٢]

وقد ضمنَّ الإمام البخاري في كتاب التوحيد من صحيحه أحاديث متنوعة في موضوعاتها، ومعظم الأبواب الأخرى تتضمن أحاديث تتصل بأسماء الله تعالى وصفاته، أما بقية الأبواب فتتوزع أحاديثها على قضايا العقيدة، مثل القدر.

(١) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، ص١٨٢٠-١٨٦٩.

(٢) الإمام مسلم، **صحيح مسلم**، مرجع سابق.

والمشيئة والإرادة، وقضايا الغيب ويوم القيامة والحساب، وقضايا تتصل بالقرآن الكريم، من حيث تلاوته وتفسير بعض آياته. ويبدو أنَّ البخاري -رحمه الله- كان يصِّنف الحديث في واحد من أبواب التوحيد، لوجود كلمة واحدة في الحديث تتصل بالتوحيد بصورة مباشرة أو غير مباشرة، مع العلم بأنَّ موضوع الحديث في مجمله يمكن أن يكون في كتاب آخر غير التوحيد، مثل كتاب فضائل القرآن، أو كتاب تفسير القرآن. وبعض الأحاديث في كتاب التوحيد، لا يسهل فهم سبب وجودها في موقعها إلا بتأويل بعيد.

وكما أنَّ القرآن الكريم يحسم أمر التوحيد بوصفه هدف رسالات الله سبحانه جميعها، إلى الناس جميعاً، فكذلك الحديث النبوي الشريف؛ إذ يجعل معرفة الله سبحانه بحقيقة وحدانيته، هي أول واجب على الإنسان في حياته، وأول دعوة الناس إلى الدين، وحديث معاذ رضي الله عنه عندما بعثه رسول الله ﷺ إلى اليمن، حاسمٌ في بيان هذا المعنى. وقد جاء الحديث في ثلاث روايات عند الإمام البخاري، وروايتين عند الإمام مسلم، يعضد بعضها بعضاً، نختار منها واحدة من روايات البخاري، وهي قوله ﷺ: "إنّك تقدم على قوم من أهل الكتاب، فليكن أوّلَ ما تدعوهم إلى أن يوحِّدوا الله تعالى، فإذا عرفوا ذلك، فأخبرهم أنَّ الله فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم، فإذا صلّوا فأخبرهم أنَّ الله افترض عليهم زكاةً في أموالهم، تؤخذ من غنيّهم فترد على فقيرهم، فإذا أقرّوا بذلك، فخُذْ منهم، وتوَقَّ كرائم أموال الناس."[1] وهذا يعنى أن الإيمان بالتوحيد، يُيَسِّر قبول التكليف بالعبادة. ولذلك فإنَّ مضمون الدعوة إلى الله إنّما يبدأ من الدعوة إلى التوحيد.

---

(١) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كتاب التوحيد، باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى. حديث رقم ٧٣٧٢، ص١٨٢٠. وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه، انظر:

- الإمام مسلم، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، حديث رقم ١٩، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، ص٤٢.

بعض طرق التعبير عن التوحيد في القرآن الكريم

١- الألفاظ المباشرة في التوحيد:

الأحد والواحد والأحدية: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾، ﴿وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ (وردت ٢١ مرة)

٢- الدلالة الحصرية:

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾، (وردت في ٣٧ مرة)

٣- نفي التعدد:

﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾، ﴿وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌ﴾، ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾

٤- نفي الشرك:

﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾، ﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾، (وردت في ٦ مرات)

٥- الأسماء الحسنى والصفات التامة:

﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾، ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾، ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ﴾، ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾، ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾، ﴿أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾ ، ﴿مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾، (أمثلة كثيرة جداً)

٦- التنـزيه:

تنزيهه سبحانه عن النقص أو المماثلة أو المشابهة بالخلق: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾.

وقد تعامل الصحابة والتابعون مع موضوع التوحيد من خلال النصوص القرآنية والنبوية، دون الدخول في مسائل الجدل الكلامي، مع أنّ بعض المحاولات المبكرة التي كانت في الغالب تحاول تأويل النصّ لتسويغ موقف سياسي، كما حصل مع الخوارج عندما قالوا: لا حكم إلا لله.

ولا شك في أنَّ دلالة بعض الآيات القرآنية على مسائل التوحيد واضحةٌ تماماً، في مثل قوله سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الكهف: ١١٠] وكذلك بعض الأحاديث مثل الحديث المشار إليه آنفاً، "فليكن أول ما تدعوهم إليه أن يوحِّدوا الله تعالى..." ومع ذلك فإنه قد يكون من المناسب أن نؤكد أنَّ قَصْر آيات قرآنية محددة أو أحاديث نبوية محددة، على دلالة معينة هو اجتهاد بشري يصيب ويخطيء، فالقرآن الكريم في مجمله كتاب هداية عامة، تتكامل آياتُه وسُوَرُه في وحدة بنائية؛ لتحقيق هذه الهداية، ويكون للآية الواحدة دلالة في ضوء المعاني الكلية، ولا بد من الحذر من أخذ القرآن أجزاءً وتفاريق. وإنك لتجد في الآية الواحدة ما يصنفها في مجال التوحيد، وفي مجال الحكم الشرعي في مسألة من مسائل المعاملات، وقد تتضمن الوعد والوعيد، وقد تشير إلى حلقة من قصة يرويها القرآن.

ثالثاً: موضوع التوحيد وعلم التوحيد

قد يكون من المناسب أن نميّز بين موضوع التوحيد، وعلم التوحيد. فموضوع التوحيد هو جوهر معنى الإسلام، ومعنى الإيمان، ومعنى الإحسان، فإنما يكون دخول الإسلام من باب الشهادة "لا إله إلا الله، محمد رسول الله"، وإنما يكون أول ركن في الإيمان: التصديق المتيقن بالله سبحانه، والإحسان أن يستشعر الإنسان معيّة الله في كل أمر. وقد جمع حديث جبريل المشهور في الصحيحين ذلك كلَّه. عن أبي هريرة، قال: "كان النبي ﷺ بازراً يوماً للناس، فأتاه جبريل، فقال: ما الإيمان؟ قال: الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، وبلقائه ورسله وتؤمن بالبعث. قال: ما الإسلام: قال: الإسلام؟ أن تعبد الله ولا

تشرك به شيئاً وتقيم الصلاة، وتؤدي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان. قال: ما الإحسان؟ قال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك. قال: متى الساعة؟ قال: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل. وسأخبرك بأشراطها: إذا ولدت الأمة ربَّتها، وإذا تطاول رعاة الإبل البُهم في البنيان، في خمس لا يعلمهن إلا الله، ثم تلا النبي ﷺ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾. ثم أدبر، فقال ردّوه، فلم يروا شيئاً، فقال: هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم."[(1)]

فموضوع التوحيد إيمان، وعمل بمقتضى الإيمان؛ فهو بذلك عقيدة يعتنقها المسلم، وشريعة تنظم حياته؛ وهو تصور ورؤية للوجود، وحياة واقعية على هدي هذا التصور. وعناصر موضوع التوحيد ثابتة لا تتغير، فهي محدودة في عددها، ومحدَّدة في دلالاتها، تصلح للصغير والكبير، وللعالم المتبحر والمتعلم المبتدئ، وشواهدها في الهديين: القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة، يتم تلقيها منهما بطريقة مباشرة. لذلك فإنَّ من أخصّ خصائص عقيدة التوحيد، كما يعرضها القرآن الكريم والسنة النبوية، البساطةَ والوضوح، وقرب هذه العقيدة من قلب الإنسان وعقله، وهي خاصية لمسها العربي في صدر الإسلام بفطرته وبساطته فأسلم ولمستها الشعوب التي عرفت الإسلام على أيدي الفاتحين من الصحابة، ثم على أيدي التجار بعد ذلك، مقارنة بالغموض والتعقيد في العقائد الأخرى، فأسلمت؛ ويلمسُها اليوم في أنحاء الأرض من هم في قمة المدنيَّة في أوروبا وأمريكا واليابان، والبدائيون في أدغال إفريقيا ومجاهلها، فيسلمون. المهم في كل ذلك هو أن تُعرض عقيدة التوحيد على الناس على حقيقتها الواضحة البسيطة، وأن يعرضها دعاة يتصفون بها، ويخلصون لها.

---

(1) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان، حديث رقم ٥٠، ص٢٣. وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه، انظر:
- الإمام مسلم، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان، حديث رقم ٩، ص٣٧.

وتتمثل عناصر عقيدة التوحيد بالتصور الشامل للوجود، فالله الواحد هو الخالق المدبر، خلق المخلوقات جميعها، ووضع نظاماً وسنناً للتدبير، وأرسل رسلاً لهداية البشر إلى ما يُصلح شؤونَهم في هذه الحياة الدنيا، وجعل الحساب في حياة أخرى بعد هذه الحياة. فالتوحيد والنبوة والمعاد أصول ثلاثة للاعتقاد تترابط وتتكامل في الإجابة عن جميع ما يمكن أن يرد في خاطر الإنسان من تساؤلات. فالله سبحانه واحد له الخلق والأمر، لذلك فإن نظام الوجود يقوم على الاستقرار والاتساق. والله سبحانه يرحم الناس؛ فيرسل إليهم رسلاً، ويُنزل عليهم كتباً، تهديهم إلى تنظيم حياتهم على أساس الهدي الإلهي. والله سبحانه جعل الحياة الآخرة موعداً للحساب العادل، يقوم فيه الناس لربِّ العالمين، يأتي إليه الناس جميعاً، منذ آدم إلى ذلك اليوم، فيتم التكامل في الوجود بين الدنيا والآخرة؛ ففي الحياة الدنيا يعيش الناس فيخطئون ويصيبون، ويعدلون ويظلمون، ويكون من الناس غني وفقير، وشريف وحقير، وطائع وعاصٍ... ولكنهم يموتون جميعاً، وقد لا تتحقق العدالة في هذه الحياة، فتأتي الحياة الآخرة، مكملة للحياة الدنيا، ويكون فيها الثواب على الطاعة والعقاب على المعصية، ويكون فيها العدل في الحساب بين الناس، فيُنْصَف المظلوم من الظالم، ويُعاقَب الظالم بظلمه، ويُجازَى الناسُ على سعيهم بالعدل الإلهي المطلق. هذا هو موضوع التوحيد.

أما علم التوحيد، فيختصُّ بالطرق والمناهج التي تناول فيها العلماء هذا الموضوع. فقد اختلف العلماء والباحثون -قديماً وحديثاً- في مناهج تناولهم موضوع التوحيد اختلافاً كبيراً، وتجلَّى هذا الاختلاف في ظهور عناوين متعددة لعلوم تتناول هذا الموضوع، منها علم التوحيد، وعلم الإيمان، وعلم العقيدة، وعلم الكلام، وعلم أصول الدين، والفقه الأكبر، إلخ. وقد ميّز بعض العلماء كل عنوان من هذه العناوين بمحددات خاصة، تسوغ استخدام كل منها في حدود معينة. فبعضهم يجعل علم التوحيد جزءاً من علم العقيدة الذي يتناول عقيدة التوحيد إلى جانب العقائد الأخرى، بينما لا يرى علماء آخرون فرقاً مهماً بين هذه العناوين؛ لأن موضوعها واحد في نهاية المطاف.

موضوع التوحيد:

الإيمان بأن الله واحد بربوبيته، وألوهيته، وصفاته، والعمل بمقتضى هذا الإيمان، وهو جوهر معنى الإسلام، والإيمان، والإحسان، وهو ينسجم مع الفطرة البشرية، ويتصف بالوضوح، والبساطة.

علم التوحيد:

علم الإيمان، أو علم الكلام، أو علم أصول الدين، أو الفقه الأكبر... وهو علم متخصص يدرس فيه العلماء قضايا العقيدة، ويستخدمون مناهج وطرقاً خاصة، تتفاوت في تفصيلاتها وإجراءاتها الفنية.

"إلاَّ أنَّ النشأة الحقيقية لهذا العلم (علم العقيدة) لم تكن إلا في أوائل القرن الثاني الهجري... إذ وضعت الملامح الأساسية لعلم العقيدة في قضاياه وفي منهجه."[(١)] وقد استغرق طور الاكتمال والنضج القرن الثالث والرابع والخامس؛ إذ: "توسعت مواضيع العقيدة التي تناولها هذا العلم بالبحث، والاستدلال حتى استغرقتها كلَّها، ما يتعلق بالإلهيات والنبوات والسمعيات.."[(٢)] ومن أشهر الكتب التي وصلتنا من هذه الفترة كتاب: "المغني في أبواب التوحيد والعدل" للقاضي عبد الجبار بن أحمد (توفي ٤١٧هـ)، و"مقالات الإسلاميين" لأبي الحسن الأشعري (توفي ٣٢٤هـ)، و"الاقتصاد في الاعتقاد" لأبي حامد الغزالي (توفي ٥٠٥هـ)، و"التوحيد" لأبي منصور الماتريدي (توفي ٣٣٣هـ).

---

(١) النجار، عبد المجيد. **الإيمان بالله وأثره في الحياة**. بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٧م، ص٢٠.

(٢) المرجع السابق، ص٢٠.

وفي القرون الثلاثة التالية؛ أي: السادس والسابع والثامن، دخل علم العقيدة في مرحلة الترتيب والتبويب وحسن العرض لما تمَّ إنجازه في المرحلة السابقة، واشتهر في هذه الفترة فخر الدين الرازي (توفي ٦٠٦هـ) في كتاب: "معالم أصول الدين"، وابن تيمية (توفي٧٢٨هـ) في "العقيدة الواسطية"، وسعد الدين التفتازاني (توفي ٧٩٣هـ) في "شرح العقائد النسفية". ثم دخل العلم في طور الجمود والتقليد في الفترة من القرن التاسع حتى القرن الثالث عشر؛ إذ اقتصر العلماء على الشرح والاختصار أو عمل الحواشي، وغلب على العلم الألفاظ والمصطلحات. ومنذ ما يقارب القرن من الزمن بدأت تدب في علم العقيدة حركة بعث وتجديد... للتخلص من كثير من الاستدلالات القديمة التي لم يعد لها قبول ولا تأثير في العقلية المعاصرة والمتأثرة بالمنطق العلمي.

"ولعل من أول من كانت له المبادرة في هذا الطور التجديدي لعلم العقيدة الإمام محمد عبده (توفي ١٩٠٥م)، كما بدا ذلك في كتابه: "رسالة التوحيد."[(١)] وكان منهم الشيخ مصطفى صبري (توفي ١٩٥٤م) في كتابه: "موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين"، ومحمد إقبال (توفي ١٩٣٨م) في كتابه "تجديد الفكر الديني في الإسلام"، وحسن البنا (توفي ١٩٤٩م) في "رسالة العقائد"، ومحمد باقر الصدر في كتابه: "فلسفتنا"، ومحمد سعيد رمضان البوطي في كتابه: "كبري اليقينيات الكونية"، وإسماعيل الفاروقي في كتابه: "التوحيد وتضميناته في الفكر والحياة"، ومحمد الغزالي في كتابه: "عقيدة المسلم"، ويوسف القرضاوي في كتابه: "حقيقة التوحيد". وقد نهج عدد من هؤلاء من المحدثين والمعاصرين في عرض علم العقيدة نهجاً يقوم على التبسيط ومخاطبة عقليات المعاصرين من المؤمنين والمناوئين.[(٢)] لكن كثيراً من العلماء والمدرسين المعاصرين لا يزالون على النهج القديم، يعتمدون على المؤلفات التي كتبت في طور النضج أو طور الجمود.

---

(١) المرجع السابق، ص٢٤.

(٢) المرجع السابق ص٢٠-٢٤.

رابعاً: أمثلة على كتابات علم التوحيد

١ - كتاب التوحيد للماتريدي[١]

يُعد هذا الكتاب من أقدم المراجع الكلامية في التاريخ الإسلامي، ويمتاز بأنّه لا يكتفي بعرض رؤيته للتفكير الإسلامي في مسائل العقيدة، وإنّما يناقش -إضافة إلى ذلك- مواقف الفرق الإسلامية الأخرى في هذه المسائل، ولا سيما المعتزلة، ويوضح مواقف الأديان والنظريات الفلسفية. وإذا كان الإمام الأشعري قد انشغل في المرحلة الأخيرة من حياته -التي أسس فيها مذهبة الكلامي- بمناقشة المعتزلة والرد عليهم في وسط العالم الإسلامي، فإنَّ الماتريدي قد انشغل بالأمر نفسه في شرق العالم الإسلامي، في بلاد ما وراء النهر. وقد ولد الماتريدي قبل الأشعري بسنوات ومات بعده بسنوات. وبين الأشعري والماتريدي اتفاق في كثير من المسائل، مع اختلافات في بعض المسائل، مع أنَّه لم يثبت أنهما تلاقيا أو أن أحداً منهما قرأ ما كتبه الآخر. وقد اعتمد الماتريدي في علمه على "منهج شيخ شيوخه الإمام أبي حنيفة، غير أنه تحول به من ميدان الفقه إلى ميدان العقيدة والفكر."[٢]

ويمتاز بأنه يجمع الأصول الثلاثة في الاعتقاد السني، وهي: الإلهيات والنبوات، والسمعيات. وجاء الكتاب في خمسة أبواب بعد مقدمة وافية عن مدارك العلوم، حدد فيها مصادر المعرفة، وهي مصدران: السمع والعقل، وحدد أدوات المعرفة وهي ثلاثة: العيان (أي الحواس) والأخبار، والنظر.

وتحدث الماتريدي في الباب الأول من الكتاب عن مسائل الإلهيات: أقاويل من يدعي قدم العالم، وقضايا الخلق، والحدوث، وصفات الله سبحانه. وهو أطول الأبواب ويقترب من نصف حجم الكتاب، وناقش في الباب الثاني

---

(١) الماتريدي، أبو منصور محمد بن محمد بن محمود. **كتاب التوحيد**. تحقيق: بكر طوبال أوغلي، ومحمد أروشي، بيروت: دار صادر، واستانبول: مكتبة الإرشاد، ط١، ٢٠٠٧م.

(٢) المرجع السابق، ص١٤ (من كلام المحررين).

مسائل النبوات: إثبات الرسالة وإثبات رسالة محمد ﷺ، ثم ناقش آراء الراوندي، والوراق، والنصارى. وجاء الباب الثالث عن مسائل القضاء والقدر، والباب الرابع عن مسائل الكبيرة ومرتكبها، والباب الخامس في مسائل الإيمان والإسلام.

٢ - المطالب العالية لفخر الدين الرازي[١]

ومنهم من غالى في الجدل والمناقشة، والتقسيم، والتفريع، والافتراض، ومناقشة الافتراض، فاتخذ منحى كلامياً جدلياً في غاية التعقيد، ومن هؤلاء الإمام فخر الدين الرازي (توفي ٦٠٦هـ) الذي ألَّف كتابه: "المطالب العالية" في تسعة أجزاء، كلها في موضوعات التوحيد والاعتقاد، ومع ذلك فقد أفرد جزءاً كاملاً بعنوان: الدلائل الدالة على التوحيد والتنزيه، فبدأ الكتاب بالقول:

"في التنبيه على دلائل التوحيد والتنزيه. اعلم أنّا إذا قلنا: الله واحد، فله تفسيران، أحدهما أنّ ذاته ليست مركبة من الأجزاء والأبعاض. وذلك لا يتم إلا ببيان أنّه تعالى ليس بمتحيّز، ولا في جهة، والثاني بيان أنَّه سبحانه منزّه عن الضدّ والندّ. ولهذا السبب ترتب هذا الكتاب على قسمين: القسم الأول في بيان كونه سبحانه منزّهاً عن التحيّز والجهة، والقسم الثاني في بيان أنّه سبحانه منزّه عن الضدّ والندّ."[٢] واستغرق المؤلف في بيان ذلك مساحة امتدت إلى مائة وخمسين صفحة، ناقش فيها أقوال الفلاسفة والمتكلمين والصوفية، على طريقة: "قالوا، وزعموا... ونحن نقول"، وعلى طريقة "هب أنَّ..." وقد تضمنت ردوده ومناقشاته التقسيم والتفريع وتعداد المسائل والوجوه والحجج، في مستويات متعددة ومتداخلة إلى درجة كبيرة من التعقيد.

---

(١) الرازي، فخر الدين. **المطالب العالية من العلم الإلهي: "وهو المسمى في لسان اليونانيين "باثولوجيا" وفي لسان المسلمين "علم الكلام" أو "الفلسفة الإسلامية."** تحقيق: أحمد حجازي السقا، بيروت: دار الكتاب العربي، ط١، ١٩٨٧م. التعريف بالكتاب على هذه الصورة هو ما ورد على غلاف الكتاب في الطبعة المذكورة.

(٢) المرجع السابق، ج٢، ص٥.

وهو في كثير من المسائل -بعد أن يكِلّ من مناقشاته- لا يتردد في الحكم على تعقيد المسألة وصعوبتها. ومن ذلك مثلاً قوله: إن الكلام في هذه المسألة "بلغ في العسر والصعوبة إلى حيث تضمحل أكثر العقول فيه. والله أعلم."[(١)] ومنه قوله: إن المسألة "بلغت في الصعوبة إلى حيث تعجز العقول البشرية عن الوصول إليها، والله أعلم."[(٢)] ومنه قوله: إنَّ الأمر "لا شك أنه في غاية الصعوبة، والله أعلم."[(٣)] ويتكرر ذلك على وجه التحديد في بعض المسائل الشائكة المتعلقة بمباحث الحدوث والقدم وأسرار الدهر والأزل التي أدار حولها الكلام في الجزء الرابع.

مثل هذه المنهجية التي سلكها الرازي جعلت من موضوع التوحيد عِلْماً مُعقَّداً، وأدخلته في مسائل الفلسفة وعلم الكلام على طريقة اليونانيين، ولذلك لا غرابة أن يكون العنوان الفرعي لكتاب "المطالب العالية من العلم الإلهي" على الوجه الآتي: "وهو المسمى في لسان اليونايين "باثولوجيا" وفي لسان المسلمين "علم الكلام" أو "الفلسفة الإسلامية". ولا غرابة كذلك أن يصل الإمام الفخر الرازي في نهاية عمره إلى القول:

نهاية إقدام العقول عقال — وأكثر سعي العالمين ضلالُ
وأرواحنا في وحشة من جسومنا — وحاصل دنيانا أذى ووبالُ
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا — سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا
فكم قد رأينا من رجال ودولة — فبادوا جميعاً مسرعين وزالوا
وكم من جبال قد عَلَتْ شُرُفاتِها — رجال فبادوا والجبال جبالُ

---

(١) المرجع السابق، ج٤، ص٢٧.
(٢) المرجع السابق، ج٤، ص٣٣.
(٣) المرجع السابق، ج ٤، ص٤٠.

ويقول كذلك: "لقد اختبرت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية، فلم أجدها تروي غليلاً ولا تشفي عليلاً، ورأيت أصحّ الطرق طريقة القرآن."(١)

٣ - رسالة التوحيد لمحمد بن عبد الوهاب(٢)

امتازت "رسالة التوحيد" للشيخ محمد بن عبد الوهاب بالبساطة الشديدة في تأكيد كليات الاعتقاد السلفي، فاكتفى بإثبات آيات من القرآن الكريم والأحاديث الشريفة، وعرَّج على البدع التي تتناقض مع مقتضيات الإيمان. والواقع أن "كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد" كان ردة فعل على مظاهر الشرك والبدع التي كانت سائدة في زمانه، فاستنكر هذه البدع، ودعا إلى التوحيد الخالص والعودة بالدين إلى عقيدتة الصافية وفطرته النقية وبساطته الأولى، التي تعتمد على أحكام القرآن والسنة. وقد تأثر في منهجه في تناول التوحيد والدعوة إليه بمنهج شيخ الإسلام ابن تيمية، ولا سيما أخذه بالعزائم والميل إلى الشدة، ودعوته إلى إخلاص العبودية لله، ومحاربته الشديدة للبدع المتمثلة في زيارة القبور والتوسل بها، وضرورة التوجه إلى الله سبحانه من غير شريك ولا وسيط.

ويتكون الكتاب من مائة وإحدى وخمسين صفحة، ويتضمن ستة وستين باباً، في كل منها مجموعة من الآيات القرآنية، وتفسيرها بأحاديث وآثار، ثم تحديد عدد من المسائل تزيد على عشرين مسألة في معظم الأبواب. والكتاب في مجمله نصوص من القرآن الكريم، وما يتعلق بها من أحاديث نبوية، تختص بمفهوم التوحيد وفضله، وما ينقض التوحيد من الشرك الأكبر، أو يُنْقِص منه من الشرك الأصغر والبدع.

---

(١) الرازي، فخر الدين. **التفسير الكبير**. بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط٤، ٢٠٠١م، ج١، (من التعريف بالمؤلف) ص١٥-١٦.

(٢) بن عبد الوهاب، محمد. **كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد**. صححه وقابله على النسخة الخطية ٨٦/٤٦٥ بالمكتبة السعودية: كل من عبد العزيز السعيد، وأحمد كحيل، ولبيب السعيد، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، (د.ت.).

٤ - رسالة التوحيد لمحمد عبده[(١)]

عاش محمد عبده في الفترة ١٨٤٩-١٩٠٥م، وكانت حالة العالم الإسلامي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، تتسم بالضعف، والتخلف، والتجزئة، والاختلاف، وتفشي الجهل، والجمود الفكري، ولا سيما عند مقارنته بالدول الأوروبية، التي كانت تمتلك التقدم الصناعي، والعلمي، والعسكري، وتسيطر على كثير من أنحاء العالم الإسلامي، وتهدد دولة الخلافة العثمانية. وكان لهذه الظروف أثرها في نشأة الشيخ محمد عبده، فانشغل في دراسة واقع الأمة والتخطيط لنهوضها الحضاري، وانخرط من أجل ذلك في نشاطات سياسية، أدت إلى نفيه إلى لبنان. وهناك شرع في إلقاء دورس في إصلاح العقيدة، تتجاوز الخلافات القائمة بين أبناء الأمة. ولما عاد إلى مصر نقح هذه الدروس ونشرها بعنوان "رسالة التوحيد."

وقد راعى محمد عبده في هذه الرسالة البساطة والوضوح في التعبير، وتجنب المصطلحات والعبارات السائدة في علم الكلام، مؤكداً أهمية إصلاح العقيدة الجامعة لأبناء الأمة الإسلامية. واعتمد في ذلك منهج السلف، لكنه أكد أهمية العقل الإنساني في فهم العقيدة من خلال النظر والتدبر في آفاق الوجود المادي والاجتماعي. كما تجنب قضايا الخلاف التي فرقت المسلمين، وعالج بعض المسائل الخلافية بطريقة تظهر الاتفاق بين وجهات النظر الكلامية المختلفة، ولا سيما مسألة رؤية الله سبحانه، ومسألة الكرامات.

ومع أن الشيخ محمد عبده لم يكن معنياً بتدريس علم الكلام أو منشغلاً في إصلاح صورته التي شوهتها جهود المتأخرين من علماء الفرق الكلامية، إلا أنه أسس لمنهج جديد في التعامل مع مسائل علم الكلام، فعرض مفاهيمه ومصطلحاته، وأوضح نشأته، وتطوره، وتعدد مدارسه، وتأثره بالظروف السياسية، واختلاطه بالفلسفة اليونانية. وعرَّج بصورة خاصة على اختلاف الفرق الكلامية

---

(١) عبده، محمد. **رسالة التوحيد**. تحقيق: محمد عماره، القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٤.

في مقام العقل الإنساني، وتطرّفها في النظر العقلاني الذي يوجهه الهوى، أو في الاكتفاء بظاهر النص واستبعاد النظر العقلي. وأشاد في هذا السياق بمنهج أبو الحسن الأشعري الوسطي في عرض قضايا العقيدة. وأثنى الشيخ محمد عبده على الأشعري لوسطيته واعتداله، وانتقد متأخري الأشعرية الذين وقعوا فيما وقع فيه المعتزلة، الذين أثنى عليهم كذلك لإعمالهم للعقل البشري فيما خلقه الله له، ولكنه في الوقت نفسه نعى عليهم تطرفهم، وتشددهم، وخلطهم لأمور العقيدة بالفلسفة اليونانية.

وقد أوضح الشيخ محمد عبده أن: "أصل معنى التوحيد، اعتقاد أن الله واحد لا شريك له، وسُمِّي هذا العلم به تسميةً له بأهم أجزائه. وهو إثبات الوحدة لله في الذات، والفعل في خلقه الأكوان، وأنّه وحده مرجع كل كون، ومنتهى قصده، وهذا المطلب كان الغاية العظمى من بعثة النبي ﷺ، كما تشهد به آيات الكتاب العزيز... وقد يسمى علم الكلام إما لأنّ أشهر مسألة وقع فيها الخلاف بين علماء القرون هي أن كلام الله المتلو حادث أو قديم، أو لأن مبناه الدليل العقلي، وأثره يظهر من كل متكلم في كلامه..."(١)

أما الغاية من هذا العلم فهي: "القيام بفرض مجمع عليه، وهو معرفة الله تعالى بصفاته، الواجب ثبوتها له، مع تنزيهه عما يستحيل اتصافه به، والتصديق برسله على وجه اليقين الذي تطمئن به النفس اعتماداً على الدليل، لا استرسالاً مع التقليد... فقد أمر بالنظر واستعمال العقل فيما بين أيدينا من ظواهر الكون..."(٢)

وقد جمع محمد عبده في منهجه في تناول علم التوحيد بين بساطة العرض السلفي القائم على فهم نصوص القرآن الكريم، وتقريب التناول الكلامي بتجريده من التعقيدات والتجريدات الفلسفية. لكن المهم في منهجه هو الربط

---

(١) عبده، محمد. **رسالة التوحيد**، تحقيق: محمد عماره، القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٤، ص١٧.

(٢) المرجع السابق، ص٣٢.

بين الإيمان بمقتضيات التوحيد وأثر هذا الإيمان في الحياة العملية للإنسان المسلم والمجتمع المسلم، وآيات الوجود الكوني وسننه. والأهم من ذلك كله أن عقيدة التوحيد في رأي محمد عبده تحقق للإنسان من الكرامة والحرية ما لا تحققه عقيدة أخرى.

فبالتوحيد "ارتفع شأن الإنسان وسمت قيمته بما صار إليه من الكرامة، بحيث أصبح لا يخضع لأحد إلا لخالق السموات والأرض،...وتجلت بذلك للإنسان نفس حرة كريمة، وأطلقت إرادته من القيود التي كانت تعقدها بإرادة غيره، سواءً كانت إرادة بشرية ظنّ أنها شعبة من الإرادة الإلهية، أو أنها إرادة الرؤساء المسيطرين، أو إرادة موهومة اخترعها الخيال كما يظن في القبور الأحجار والأشجار والكواكب، ونحوها، وافتكت عزيمته من أسر الوسائط والشفعاء، والمتكهنة والعرفاء، وزعماء السيطرة على الأسرار، ومنتحلي حق الولاية على أعمال العبد بينه وبين الله، الزاعمين أنهم واسطة النجاة، وبأيديهم الإشقاء والإسعاد. وبالجملة، فقد أعتقت روحه من العبودية للمحتالين والدجالين، وصار الإنسان بالتوحيد، عبداً لله، حراً من العبودية لكل ما سواه، فكان له من الحق ما للحر على الحر، لا عَلِيّ في الحق ولا وضيع، ولا سافل ولا رفيع، ولا تفاوت بين الناس إلا بتفاوت أعمالهم، ولا تفاضل إلا بتفاضلهم في عقولهم ومعارفهم..."[(١)]

وقد كان لمنهج محمد عبده في رسالة التوحيد أثره الكبير في أعمال تلاميذه وغيرهم من العلماء الذين لحقوا به، وتأثروا بمدرسته الإصلاحية في الاجتهاد في العلم، والتوجه العملي في الدعوة، بدءاً من تلميذه الشيخ محمد رشيد رضا، ثم بعلماء الإخوان المسلمين ومفكريهم، وانتهاء بالكثير من الكتّاب المعاصرين. وقد آمنت هذه المدرسة أن أساس توحيد الأمة في واقعها يعتمد على مبدأ التوحيد في عقيدتها.

---

(١) المرجع السابق، ص١٣٨- ١٣٩.

٥ - رسالة العقائد لحسن البنا[1]

كتب المرحوم حسن البنا (توفي ١٩٤٩م)، رسالة قصيرة في العقائد طبعت بعنوان: "رسالة العقائد"، وتقع في حوالي خمسين صفحة، أوضح فيها الإمام الشهيد تعريف العقائد، وأن هذه العقائد يؤيدها العقل ويثبتها النظر الصحيح. وقسَّم العقائد الإسلامية إلى أربعة أقسام، هي: الإلهيات والنبوات والروحانيات والسمعيات، وفصَّل القول في القسم الأول، وهو ما يتعلق بذات الله سبحانه وأسمائه وصفاته، وبيَّن اختلاف الناس في الصفات بين مجسِّمة ومعطلة، وموقفهما مرفوض، وموقف السلف في إثبات ما أثبت الله لنفسه، دون تفسير ولا وصف ولا تشبيه، وموقف الخلف في تأويل معاني الألفاظ الخاصة بالصفات بوصفها مجازات. وتوصل إلى أنَّ السَّلَفَ والخَلَفَ اتفقوا على أصل التأويل، لكن الخلَف حاولوا تحديد معاني معينة بهدف تنزيه الله سبحانه. لكن البنَّا مال إلى "أنَّ رأي السلف -في السكوت وتفويض علم هذه المعاني إلى الله تبارك وتعالى- أسْلَمُ وأولى بالاتباع، حسماً لمادّة التأويل والتعطيل." ومع ذلك فإنَّ الخلاف في تأويل الألفاظ أمر هيِّن لا يستدعي النزاع قديماً وحديثاً، وأهم ما يجب أن تتوجه إليه همم المسلمين الآن توحيد الصفوف وجمع الكلمة.

٦ - الإيمان بالله وأثره في الحياة لعبد المجيد النجار [2]

كان للدعاة الإسلاميين المعاصرين دور ملحوظ في تأكيد أهمية موضوعات التوحيد، وقضايا الإيمان في صياغة الحياة المعاصرة للإنسان المسلم والمجتمع المسلم، فظهرت مجموعة ليست قليلة من الكتابات في هذا المجال، منها: "الإيمان وأثره في الحياة" لحسن الترابي، و"الإيمان حقيقته وأركانه ونواقضه" لمحمد نعيم ياسين، و"العقيدة وأثرها في بناء الجيل"

(١) البنا، حسن. **رسالة العقائد.** عناية: ماجد الدرويش، طرابلس، لبنان: دار مكتبة الإيمان، ٢٠٠١م.

(٢) النجار، عبد المجيد. **الإيمان بالله وأثره في الحياة**، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٩٩٧م.

لعبد الله عزام، و"الإيمان وأثره في نهضة الشعوب" ليوسف العظم، و"الإيمان بالملائكة وأثره في حياة الأمة" لصالح الفوزان، و"الإيمان باليوم الآخر وأثره في حياة المسلم" لعبد الله الأثري.

ويجدر التنويه في هذا السياق بواحد من هذه الكتب وهو كتاب عبد المجيد النجار" الإيمان بالله وأثره الحياة "، الذي لم يكتف بتقرير المسائل النظرية الكبرى المتعلقة بوجود الله تعالى وصفاته بطريقة منهجية تستند إلى نصوص الوحي، ومقتضيات الفطرة السليمة، وبيّنات العقل الكوني البرهاني، بل حرص أيضا على الاجتهاد في: "بيان الآثار العملية للإيمان بالله في حياة المؤمنين أفراداً وجماعةً، بياناً يقوم على الحجة المنطقية في تأدية الإيمان إلى رغد الحياة، ويقوم على الحجة التاريخية متجلية فيما أثمره هذا الإيمان من حضارة إسلامية زاهرة امتد نفعُها العملي ليتجاوز المسلمين إلى العالمين، وهذا بيانٌ من شأنه أن يكون حجة قوية في الدعوة إلى الإيمان بالله، وذلك لِـمَا ساد في الناس من ثقافة نفعية، ترى العقول بها أنَّ الحق هو ما فيه نفعٌ عملي، فتنفتح بالقبول حينما تُخاطَب بما يقنعُها بالمردود العملي الذي يحلّ مشاكل الحياة الواقعية، ويكون ذلك هو مدخلها إلى الإيمان بالأفكار، والتصورات النظرية."[١]

خامساً: التوحيد وتضميناته في الفكر والحياة لإسماعيل الفاروقي(2)

أسهم معظم روّاد مدرسة إسلامية المعرفة في الكتابة على التوحيد،[٣] ولا سيّما في ربط العقيدة بكل وجوه الحياة، ومختلف ألوان النشاط الاجتماعي

(١) المرجع السابق، ص٧.

(٢) al-Faruqi, Ismail R.. *Al-Tawhid: Its implications for Thought and Life*. Herndon, VA: IIIT. Fifth printing, 2000.

(٣) كتب الدكتور طه العلواني فصلاً مطولاً في كتاب "المنهجية الإسلامية" بوصف التوحيد المبدأ الأول من مبادئ المنهجية الإسلامية، انظر:

- باشا، أحمد فؤاد وآخرون. **المنهجية الإسلامية**. القاهرة: المعهد العالمي للفكر الإسلامي ودار السلام، ٢٠١٠م، ج١، ص٣٤٧-٤٥٩.

والفكري الإنساني من السياسة إلى الفنون. ونختار في هذا المجال عملاً مميّزاً لرائد من روّاد هذه المدرسة هو المرحوم إسماعيل راجي الفاروقي (توفي ١٩٨٦م) وكتابه "مفهوم التوحيد وآثاره في الفكر والحياة". ونفرد هذا الكتاب القيّم تحديداً بقدر من التفصيل، لما تميّز به الكتاب في نظرته إلى التوحيد بوصفه القيمة الكبرى في دين الإسلام، ومصدر كل القيم الأخرى في الدين، ثم في عرضه لتجليات قيمة التوحيد في أنظمة الحياة كلها. ويمكن النظر إلى هذا الكتاب كذلك على أنَّه إحدى المحاولات المعاصرة الجادة التي أخذت على عاتقها مهمة تجديد علم الكلام، وإعادة تفعيله، وربطه بحركة التاريخ، وبالأشواق الحضارية المشروعة للمسلمين في العصر الحديث، دون التنازل عن المنهجية العلمية الرصينة المطلوبة في مثل هذه الدراسات.

انطلق الفاروقي في كتابه من واقع الأمة المسلمة المشهود، سعياً إلى النهوض بها إلى مستقبل منشود. وعالج موضوع التوحيد بوصفه قيمةً حاكمة لمجالات حياة الإنسان المسلم، والمجتمع المسلم. وهدف الكتاب هو تقديم رؤية للوجود تعين الشباب المسلم على السير في طريق الإصلاح الحقيقي، وتحليل مفاهيم الإسلام؛ لتكون معياراً لبرامج الإصلاح. فالتوحيد هو جوهر الإسلام وكنهه، ومنطلق الإصلاح ومضمونه. ولذلك فإنّ جميع فصول الكتاب الثلاثة عشر، تتعلق بالتوحيد، فالتوحيد جوهر الرسالات السماوية، وماهية الإسلام وكنهه، وهو مبدأ التاريخ، وهو مبدأ الغيب، ومبدأ الأخلاقيات، ومبدأ النظام الاجتماعي، ومبدأ العائلة، ومبدأ النظام السياسي، ومبدأ النظام الاقتصادي، ومبدأ النظام العالمي، ومبدأ الخصائص الجمالية. وميزة الكتاب أنه يؤكد في كل فصل من فصوله محورية التوحيد، وكونه معياراً قيمياً لمعالجة موضوع الفصل.

ويُبيِّن المؤلف تكاملَ الرؤية التوحيدية وجمعَها بين الأبعاد الحضارية: الفلسفية والعملية. وتمتزجُ ملاحظتُه لقضية الوحدة والتكامل بين فروع المعرفة بقدر واضح من التخفُّف من الأحمال التي عرفها التراث الإسلامي باسم الفلسفة

الإسلامية وعلم الكلام، وينصرف جهدُه في هذا الشأن إلى التحريض على إصلاح الفكر الإسلامي والواقع الإسلامي المعاصر.

فالتوحيد -عند الفاروقي كما هو عند سائر علماء المسلمين- رؤيةٌ عامة إلى الحقيقة، والكون، والزمان، والمكان، والتاريخ الإنساني، والمصير. وينسحب مبدأ التوحيد على مجمل نظام الحياة الشمولي في الإسلام، ويؤثّر في كلّ عناصر الحضارة الإسلامية، ويُقِيمُ بينها روابط محددة. وتتم إعادة الصياغة والشمول التي يُحْدِثُها الإسلام في كل عنصر من عناصر حضارته بدرجة تتراوح في العمق، من تحويل بسيط في حالة الشكل والصورة إلى تغيير جذري في حالة الوظيفة؛ لأنَّ الوظيفة هي التي تكوّن العلاقة الجوهرية. وعندما طور المسلمون علم التوحيد، جمعوا فيه مجالات: المنطق، ونظرية المعرفة، والغيب، والأخلاق.[1] تلك هي أهم خصائص القيمة، لذلك لا جرم أن يتحدث الفاروقي عن التوحيد بوصفة قيمة.

ويميِّز التوحيدُ الإسلامي تمييزاً حاسماً بين الخالق المتعالي، والكون المخلوق. وإرادةُ الخالق هي التي تحدد وجودَ المخلوقات وسلوكَها ونظامها. وتتمثل حقيقةُ التوحيد في أنَّ الكون قائمٌ على الانتظام في السلوك، دون اضطراب أو فساد، مما يشير إلى وحدة المرجعية في هذا النظام، وهي الخالق الواحد سبحانه، فلو كان في الكون آلهة متعددة، لاضطرب الكون وفسد أمره؛ لأنَّه لا يستطيع أن يأتمر بأمر سيدين في الوقت نفسه، ولذلك كان توحيد الله يمثل المقام الأعلى في الدين، وله الميزة العظمى في اعتقاد الإنسان وفي جزائه.

ويفترض الاعتراف بوحدانية الله -بالضرورة- الاعتراف بوحدة الحقيقة. فالحق والحقيقة صفة تقتضيها حقيقة التوحيد. ويبيّن الفاروقي كيف يقوم التوحيد -بوصفه مبدأ منهجياً يقتضي وحدة الحقيقة- على ثلاثة مبادئ فرعية تتعلق

---

(١) al-Faruqi, Al-Tawhid: Its implications for Thought and Life, p. ١٧.

بطبيعة المعرفة التي يكتسبها الإنسان من مصادرها: الأول رفض جميع ما لا يوافق الحقيقة، والثاني إنكار التناقض، والثالث الانفتاح على الأدلة الجديدة.(١)

فالمبدأ الأول يستبعد الباطل والوهم والظن من دائرة الاعتقاد الإسلامي ويبقي المجال مفتوحاً للنقد والتمحيص. والابتعاد عن الحقيقة أو الفشل في التوافق معها يكفي لرفض أي شيء في الإسلام، سواء كان تشريعاً أو مبدأً أخلاقياً شخصياً أو اجتماعياً أو أي صيغة لفهم العالَم. وهذا يحمي المسلم من آثار الرأي والهوى؛ فأيُّ زعْم لا يصحبه الدليل ليس إلا ظنّاً لا يغني من الحق شيئاً.

والمبدأ الثاني يتعلق بعدم التناقض. ويمثل هذا المبدأ جوهر العقلانية، وبغيره لا مناص من الشك. فالتناقض النهائي يعنى أن الحقيقة لا يمكن الوصول إليها. صحيح أن التناقض قد يقع في تفكير الإنسان وقوله. وقد يبدو التناقض في فهمنا الظاهري بين الوحي والعقل. وإذا كان الإسلام ينكر الإمكانية المنطقية لهذا التناقض، فإنَّه في الوقت نفسه يقدم توضيحاً للكيفية التي يمكن بها إزالة التناقض لو أنّه اختلط بفهمنا.

ويرى الفاروقي أنه لا العقل ولا الوحي يسيطر أحدهما على الآخر، فلو قدم الوحي فإنه ينتفي المبدأ الذي يميز نصاً من نصوص الوحي عن نص آخر، أو يميز فكرتين يقدمهما الوحي في موضوع واحد. وعندها لا يسهل حلُّ ما يبدو من تناقض أو عدم انسجام في فهمنا لنصوص الوحي. إنَّ نصوص الوحي نفسها تتَّصف بالانسجام الداخلي. والفهم الصحيح لها يحول دون وجود التناقض. ولكن نصَّاً ما من نصوص الوحي ربَّما يبدو مناقضاً للعقل؛ أي لبعض نتائج الفحص والإدراك العقلي. وعندما يحدث ذلك، فإنَّ الإسلام يعلمنا أنَّ التناقض ليس هو النهاية، ويحيل الباحث إما لمراجعة فهمه للوحي، أو لنتائج بحثه العقلي، أو للأمرين معاً.

ومع رفضنا لفكرة وجود تناقض نهائي، فإنّ مبدأ التوحيد -بوصفه تعبيراً عن وحدة الحقيقة- يدعونا أن نعود إلى مسألة التناقض بهدف النظر فيها مرة أخرى؛

(١) Ibid., p. ٤٣.

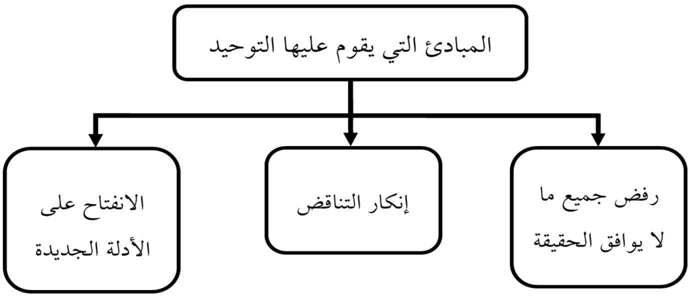
إذ إنَّ بعداً معيناً ربَّما فاتنا النظر إليه، فإذا أخذناه بالحسبان فربَّما يُحَلُّ التناقض. إنّ التوحيد يتطلب من قارئ الوحي -وليس من الوحي نفسه- أن يجرِّب قراءة أخرى للوحي في مسألة التناقض، تزيل اللَّبس وتوضِّح المعنى غير المفهوم، فإذا حصل ذلك فإنَّ التناقض يُحسم. فمراجعة العقل أو الفهم ربما تؤثر في بناء الانسجام ليس بين نصوص الوحي نفسها، فإن هذه النصوص تستعلي على أية عملية تطويع بشرية، وإنما بين تفسير الإنسان وفهمه لهذه النصوص. بناء الانسجام هذا يجعل فهمنا للوحي يتفق مع البيّنات المتجمعة والمكتشفة عن طريق العقل. فقبول احتمال وجود التناقض لا يستهوى أكثر من ضعفاء العقل. إنَّ الإنسان المسلم هو عقلاني عندما يصر على وحدة نوعي مصادر المعرفة الوحي والعقل.(١)

ويبدو أنَّ الفاروقي يلتقي في هذا الموقف مع ابن تيمية، ويستبعد حاجتنا إلى الأخذ بآراء الرازي وابن رشد وأمثالهما من الفلاسفة المسلمين وغيرهم من المتكلمين، الذي يفترضون احتمال وجود التعارض بين النقل والعقل ويعدّون العقل هو المرجعية؛ لأنَّه أداة لفهم النقل. ويستبعد حاجتنا إلى الأخذ بآراء الغزالي في الموضوع نفسه، الذي يوافق الفلاسفة والمتكلمين في احتمال وقوع التعارض، ويقدم النقل على العقل في المرجعية.

المدرسة	الفكرة	طريقة الحل
الرازي وابن رشد...	يحدث التعارض بين العقل والنقل	العقل هو المرجعية
الغزالي	يحدث التعارض بين العقل النقل	النقل هو المرجعية
ابن تيمية	لا يحدث التعارض بين العقل والنقل	مراجعة فهم العقل للنقل
الفاروقي	قد يتعارض الوحي مع العقل منطقياً في الظاهر، ولكنه ليس تعارضاً نهائياً	لا محل لطغيان أحدهما على الآخر، والحل مراجعة فهمنا للنقل، أو مراجعة النتائج العقلية، أو المراجعتين معاً

(١) Ibid., p. 44.

أما المبدأ الثالث للتوحيد بوصفه تعبيراً عن وحدة الحقيقة، فهو التفتُّح لقبول البيّنات الجديدة أو المخالِفة. وهذا المبدأ يحمي المسلم من الحاجة إلى المذاهب الأخرى الليبرالية، أو الإغراق في التطرف أو المحافظة، بما يؤدِّي إلى التجمد والسكون، ومن جهة أخرى فإن هذا المبدأ يرتفع بالمسلم إلى التواضع الفكري، ويفرض عليه النطق بعبارة "الله أعلم"؛ لأنَّه مقتنع بأنَّ الحقيقة أكبر من أن يحيط بها الإنسان في أي وقت.



وكما أنَّ التوحيد هو إثبات الوحدة المطلقة لله عز وجل، فإنَّه كذلك إثبات الوحدة لمصادر الحقيقة، فالله خالق الطبيعة التي يأخذ الإنسان منها المعرفة: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [يونس: ٥ – ٦] فموضوع المعرفة هو أشياء الطبيعة وأحداثها التي هي خلق لله، فمن المؤكد أنَّ الله سبحانه يعلمها، ومن المؤكد بالقدر نفسه أنّ الله سبحانه هو الذي يعطي الإنسان شيئاً من علمه الواسع المحيط المطلق الكامل.

ثمّ إنّ التوحيد يدعو الإنسان إلى الربط بين الإيمان بالله الخالق من جهة، وممارسة العلم في ميادينه المختلفة من جهة أخرى؛ ذلك أنَّ الإنسان عندما يدرك فِعْلَ الله في كل الأحداث والأشياء، فإنَّه يتتبّع فعل الخلق الإلهي، فعندما يشاهد فِعْلَ الله في الطبيعة، فإنَّه يمارس العلوم الطبيعية؛ فالخلق الإلهي في الطبيعة ليس

إلاّ السنن والقوانين التي أودعها الله في هذه الطبيعة. وعندما يشاهد الإنسان فعل الخلق الإلهي في نفسه أو مجتمعه، فإنَّه يمارس العلوم الإنسانية والاجتماعية. وإذا كان الكون بأجمعه يتكشَّف -من خلال سعي الإنسان وبحثه- عن فعل تلك القوانين والسنن بكونها أوامر الله وإرادته، فإنّ الكون في نظر المسلم هو "مسرح حيّ خلقه الله سبحانه بأمره وفعله."[١]

ويوضح الفاروقي كيف أنَّ قيمة التوحيد هي مصدر القيم الأخرى في جميع أنظمة الحياة البشرية، وفيما يلي توضيح لتجليات التوحيد في بعض هذه الأنظمة.

١ - تجليات التوحيد في النظام الاجتماعي: الأسرة والأمة[٢]

تشتمل تعاليم الإسلام على ما يختص بمناحي الحياة كلّها؛ لأن الدين في تعريف الإسلام هي صناعة الحياة وتحريك التاريخ في الزمان والمكان. ومهمته الخلافة التي أراد الله للإنسان أن يتولاها، تختص في جزئها الأكبر بإقامة الحياة الاجتماعية، وتنظيم المعاملات فيها وفق أحكام الله، وهذه لا تقتصر على شؤون الأسره، وإنما تتناول أحكام التعامل المالي والاقتصادي، وشؤون الدوله والإدارة الحكومية، وأحكام القضاء وقوانين تحقيق العدل، وكلها أحكام تتعلق بالواقع الاجتماعي. أما قضايا العبادات والأخلاق الفردية فلا تشكل إلا الجزء اليسير من تشريعات الإسلام، فضلاً عن أنّ كثيراً من أحكام العبادات هي اجتماعيه بطبيعتها مثل الحج والزكاة، وبعضها اجتماعية في تأثيرها مثل الصلاة والصوم.

ويختلف الإسلام في هذا تماماً عن الأديان الشرقية الهندوكية والبوذية، وعن المسيحية، كما يختلف عن النظرة العلمانية الحديثة التي لا تريد إنشاء مجتمع تنبع قيمه من مصدر ديني. إن تجليات التوحيد في حياة المجتمع تتمثل في أن أوامر الله الواحد إنّما تتحقق في حياة الأمة. فالأمة تحتكم الى قانون إلهي يعبر عن جوهر الحقيقة الدينية، وهو مصدر السلطة في حياة الأمة وليس

(١) Ibid., p. 51.

(٢) Ibid., p. 85-139

الأغلبية (الديمقراطيه) ولا الأقلية (أوليغاركيه) ولا الفرديه (أتوقراطيه) ولا تقبل أن يحكمها فرد أو جماعة باسم الله (ثيوقراطيه).

إن الهدي الأخلاقي الديني الذي جاء به الإسلام يستهدف صياغة الأمانة التي يحملها الإنسان بوصفها قيمة أخلاقيه لحياة الإنسان في هذا العالم، ولا يستطيع الإنسان القيام بهذه الأمانة إلا بوجود نظام اجتماعي. والقيمة الأخلاقيه هي روح العلاقات في هذا النظام، فمن هذه العلاقات مثلاً التعاون والتكافل في توفير الحاجات الأساسيه من خلال البيع والشراء، وهنا يأتي دور الأمانة والصدق والوفاء في التعامل بين الناس، فالمجتمع هو شرط لا بد منه لوجود هذه القيم الأخلاقية، وتتطور التمثلات العلميه للقيم من مجتمع إلى آخر، ومن زمن إلى آخر، من أجل ضبط سلوك الناس في المجتمع، تبعاً لروح تلك القيم ومقاصدها. وهذا يعبر عن العلامة الجدلية الوجودية بين جوهر القيمة من جهة، وأشكال تحققها في الواقع من جهة أخرى.

لكن جوهر القيم مرتبط بمصدرها الوحيد وهو الله سبحانه، فالتوحيد يميِّز تمييزاً حاسماً بين الله الواحد وجميع المخلوقات، وكما أنَّ التوحيد يعني وحدانية الله سبحانه، ومن ثم وحدة المرجعيه في الحقيقة والقيم، فإنَّ التوحيد يفترض في الوقت نفسه أن القيمه هي قيمه لجميع البشر المخلوقين بلا تمييز. وكما أنَّ سنن الله في الكون تنطبق على جميع المخلوقات، حتى تنظم حركة الكون، فإنَّ إرادة الله الأخلاقيه تشمل جميع البشر، فلا يعلو فرد على الآخرين، ولا تتحكم فئه في غيرها، وهكذا يكون المجتمع الذي يبْنِيه الإسلام لا يقوم على فضيلة فرد أو أسرة أو قبيلة أو شعب أو جنس، وحتى لو بدأت حركة بناء المجتمع في لحظة معينه في مكان معين، على أيدي فئة معينه، فإنَّ الحركة في بناء المجتمع لا بد أن تتوجه إلى البشر جميعاً، فالمجتمع الإسلامي وسيلة، إذا لم يشمل العالم كله، وهو غاية، عندما يتحقق هذا الشمول. وأيُّ حصْر لطبيعة المجتمع البشري في "شعب مختار" أو "دم نبيل" أو عِرق خاص يتناقض مع مقتضيات التوحيد.

إن كل أشكال النزاع والصراع في العالم سببها قيام مجموعة تدَّعي أنها مصدر القيم التي تريدها، وترفض اعتماد أي مقياس أعلى لحفظ القيم يعين في حل الصراعات. وتكون "القوة" في هذه الحالات هي القيمه الحاكمه، ومن ثم يبقى التحول والتغير في "القوة" بين الأفراد والجماعات والشعوب مصدراً دائماً لحروب لا نهاية لها.

والنظام المطلوب في المجتمع يتصف بالشمول في ضبطه لسلوك الناس في جميع مناحي حياتهم. والمضامين العمليه للتوحيد؛ أي المجتمع الذي يريده الإسلام هي مضامين خاصة بمجتمع عالمي يشمل جميع البشر، وجميع شؤون الحياة، ويرتب على كل فرد مسؤولية تحقيق القيم، سواءً في إيمانه الداخلي بهذه القيم أو في تحقيقها العملي في الحياة.

ولا شك في أن النظام الاجتماعي الإسلامي الذي يقوم على التوحيد يعتمد الأسرة وحدةَ بناء المجتمع، وروح العلاقات الأسرية ومتانتها. وفي هذا يختلف النظام الاجتماعي الإسلامي عن أيّ نظام آخر. فقد أدت النظرية الشيوعية التي حاولت إلغاء دور الأسرة إلى إضعاف الروابط والعلاقات الأسرية، وأدت الروح الفردانية في الغرب إلى انفراط عقد الأسرة وإيصالها إلى مرحلة الاحتضار. وأسهمت النظريات الأنثروبولوجية التي تنظر إلى العلاقات بين البشر في ضوء ما هو قائم بين الحيوانات إلى غسل أدمغة الناس بعدم وجود فوارق مهمة، وإلى إلغاء الدور المكرم للأسرة. وبذلك أصبحت الحضارة الإنسانية مهددة بالسقوط؛ لأن الحضارة والأسرة حقيقتان مرتبطتان.

ولعل مما يلفت الانتباه أنَّ ميدان الأسرة في القرآن الكريم، قد تم تنظيمه بقدر كبير من الأحكام، والتشريعات التفصيلية في الزواج والطلاق والرضاع والإرث، في حين اكتفى القرآن الكريم في سائر الميادين الأخرى بمبادئ عامة، وقليل من الأحكام التفصيلية. ومن المفيد هنا كذلك أن نتذكر أنّ القرآن الكريم أكد القيم الناظمة للعلاقات الفطرية التي تختص بالمشاعر الإنسانية بين أفراد

الأسرة من سكن وحب، ورحمة ومودة، وتعاون وتشاور، وغيرها، وأن هذه القيم الفطرية هي أساس بناء الأحكام والتشريعات.

ولا تزال الأسرة الإسلامية محافظة على بعض خصائصها، بسبب اعتمادها على الطبيعة الفطرية للأسرة (منظومة القيم)، وبسبب ارتباطها بأحكام الشريعة، المنبثقة عن عقيدة التوحيد. فالغاية من خلق الإنسان هي تحقيق الجانب الأخلاقي من الإرادة البشرية عبر الفاعل الإنساني. ويتم هذا التحقّق عبر أربعة مستويات: الذات الفردية، والأسرة، والقبيلة أو القوم، والأمة. ولا شك في أن المستويين الأول والثاني، هما بدهيان طبيعيان بحكم الفكرة والطبيعة البشرية، والمستوى الثالث يجد قيمته في المستوى الرابع، فلا قيمة حقيقية مستقلة له. فإذا كانت العلاقة القبلية والقومية تحصر علاقات الإنسان بالآخرين على أساس الدم، واللون، واللغة، فإن ذلك يهدر كرامة الإنسان، ويولِّد روح التفوق والتمايز، ومن ثم يثير النزاعات والحروب.

أمّا الأمّة القائمة على أساس عقيدة التوحيد، فإنها تقوم على الانسجام والتلاؤم مع الفطرة، وما تتطلبة من علاقات المودة والرحمة والتكامل في المسؤوليات. والوحدة الأساسية لبناء هذه العلاقات هي الأسرة التي تتكون أساساً من زواج الرجل والمرأة وما يبنيه هذا الزواج من علاقات المصاهرة والنسب، وما ينتج عنه من الأبناء والأحفاد، وما تقيمه من مفاهيم العمومة والخؤولة، وما تنشئه من مسؤوليات تتضمنها عبارات قرآنية قيّمة، مثل "أولوا الأرحام"، و"ذوو القربى". فهذه أحكام شرعية، لتنظيم العلاقات الاجتماعية الفطرية، الثابتة عقلاً ومنطقاً، فلا بد أن تكون نافذة نتيجة للإيمان بكلمة التوحيد. ودون اعتماد الأسرة في إطارها التشريعي، فإن تجليات مبدأ التوحيد لن تتحقق في الواقع الاجتماعي البشري.

إن دلالة توحيد الخالق سبحانه تفترض أنَّ جميع البشر متساوون أمام الله، ولهذا فإن مسؤوليتهم أمام الله مسؤولية فردية. وتقوم المساواة بين الذكر والأنثى

من البشر، في الحقوق والواجبات والمسؤوليات الدينية والأخلاقية والمدنية، والنصوص القرآنية في هذا الشأن نصوص متعددة وقاطعة في دلالاتها، وما يبدو من استثناءات وألوان من الخصوصية لأحد الجنسين، إنما هو تأكيد لهذه المساواة مع عدّ بعض الاختلافات الطبيعية التي تنبني عليها مسؤوليات خاصة بالرجل أو المرأة. فعَدَّ الاختلاف في التكوين الجسدي والوظائف الفطرية، يؤدي إلى تكامل في الأدوار، دون اختلاف في القيم والمعايير الأخلاقية والمسؤوليات الدينية؛ فكل من الرجل والمرأة يحتاج إلى الذكاء والموهبة والجهد الشخصي الذي لا بد من بذله، للقيام بالمهمة على الوجه الأفضل، ومع ذلك فإن بعض الأدوار قد تتشابك وتتداخل في بعض مساحات العمل المنزلي أو المهني أو الاجتماعي، دون الإخلال بمتطلبات الطبيعة البشرية لكل منهما.

والأسرة المسلمة ذات الطبيعة الممتدة الواسعة، لا تعتمد على الاستقلال المادي للرجل والمرأة للزوج والزوجة، وإقامة الأسرة، وإنما تعتمد التعاون والتكافل في توفير متطلبات الزواج في سن مبكرة، ويعيش صغار الأسرة مع كبارها، وتعيش في البيئة المنزلية ثلاثة أجيال على الأقل، فيكون التثاقف وتشرُّب الأعراف والتقاليد والتربية على القيم، ويتم تبادل المودة والرحمة وتعميق ألوان العطف والحب والاحترام، وتتحقق في جو هذه الأسرة صور من الحياة الطبيعية، بما فيها من فرح وحزن، وضحك وبكاء، وجد ولعب، وتبادل في التضحية، وتسود الحياة نظرة متفائلة تتطلع إلى المستقبل. وكل ذلك ظواهر من بناء الصحة النفسية اللازمة للإنسان.

أمَّا الأسرة النووية فإنَّ اختيارها يقوم على النظرة المادية إلى الحياة والعالم، ويحاول فيها الزوجان الهروب من مسؤوليات اجتماعية فطرية، لكنهما يتحملان في واقع الأمر مسؤوليات أكبر تملأ حياتهما ضنكاً ورهقاً، فضلاً عن خلو الحياة من متطلبات النضج النفسي والمشاعر الإنسانية الفطرية، وتحقيق مظاهر الصحة النفسية.

وإذا كان الإسلام يعتمد الأسرة وحدةَ بناءٍ للأمة، ويضع مفهوما محدداً للأسرة، فإنَّه يضع مفهوماً محدداً للأمة كذلك، فالأمَّة مصطلح إسلامي متميز، ويشير إلى حقيقة ترتبط برؤية الإسلام إلى العالم، ويختلف عن مصطلح المجتمع أو الجماعة بدلالاتها اللغوية والاصطلاحية المتداولة. وكذلك يصعب التعبير عن مفهوم الأمّة بغير اللغة العربية، فهو ليس الشعب، ولا الدولة ولا القوم. الأمَّة في المفهوم الإسلامي غير مرتبط بالمكان والمحددات الجغرافية، فكل أفراد البشر إمَّا أعضاءٌ منتمون إلى أمة الإسلام أو مدعون للانتماء إليها.

الأمَّة في المفهوم الإسلامي نوع من "الأمم المتحدة" يجمع أفرادها ومجتمعاتها الدين، وتقوم الحكومة والجيش بتنفيذ قرارات الأمة. الأمة هي النظام الاجتماعي الإسلامي، وهو نظام يتصف بالعالمية؛ لشمول توجهاته لجميع البشر، ويتصف بالشمولية؛ لأن هذه التوجهات تناولت جميع مناحي الحياة. وإذا لم يجد المسلم حكماً شرعياً في جانب معين من الحياة، فعليه الاجتهاد في تطبيق المبادىء العامة حتى يجد الحكم الشرعي، ويدخل الناس في حقل الانتماء إلى الأمة طوعاً واختياراً. وبذلك تكون الأمة أداة لتنفيذ إرادة الله في الكون، لتكون كلمة الله هي العليا، وذلك بالدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر. والإسلام يؤكد القيم الشخصية من إخلاص، وصدق، وأمانه وطهارة نفس، مما يمكن أن يحققه الفرد في خاصّة نفسه، لكن هذه القيم تتحول إلى رهبنة محصورة إذا لم تترجم الى أعمال تؤثر في الزمان والمكان، وتنتشر بين أفراد المجتمع، وتوجِّه قيادات العالم نحو الخير العام، من خلال التشريعات المناسبة في جميع مناحي الواقع الاجتماعي.

إنَّ طاعة الله وتحقيق إرادته هي القيمة التي تعطي كل شيء قيمته، فالواجب الأخلاقي يكون له معنى فقط حين يتمثل في نسيج العلاقات التي يقيمها الإنسان في حياته مع غيره من الناس في علاقات الأسرة والجوار، وعلاقات الإنتاج والاستهلاك ومعاملات التجارة، والاتصال والتنقل، وعلاقات التنافس والصراع

والحرب والسلم. فالقيم الأخلاقية تبقى تصورات مثالية إذا لم تتحقق في علاقات البشر وحياة المجتمعات.

إنّ وحدة الأمة الإسلامية وحدة دينية وأخلاقية وليست وحدة بيولوجية عِرقية أو لغوية أو سياسية. وهذا ما جعل النبي ﷺ يسمِّي يهود المدينة أمة بالرغم من انتمائهم لمجتمع المدينة، واشتراكهم معه في المحيط الجغرافي، واللساني، والسياسي، والحضاري الذي ينتمي إليه المسلمون، فالهوية الدينية هي التي تحدد مفهوم الأمة. ومع ذلك فإن وجود الوحدة السياسية والجغرافية، والعِرفية، واللغوية يدعم الوحدة الدينية للأمة ويقوِّيها، فالأقربون أولى بالمعروف، لكن هذه الوحدات ليست هي الأساس في تكوين الأمة وتحديد هويتها، فهي خصائص قائمة بالضرورة؛ لأنها قد تكون خارجة عن الإرادة، أما الانتماء إلى الأمة بالمعنى الديني فهو يكون عن وعي، ويتحق باختيار ذاتي إرادي، لذلك فإنّه لا يقبل الإكراه في الدين.

ووحدة الأمة الدينية تعني بالضرورة أن لا يسمح بالانقسام في داخلها على أساس ديني، فأساسيات الاعتقاد الديني في الإسلام واحدة لا تقبل الاختلاف؛ لأنَّ هذه الأساسيات الاعتقادية تعبر عن وحدة الحقيقة الدينيه "التوحيد"، وحتى حين تتعدد الآراء في فهم حقيقة، فإنَّ الأمة ملزمة بإنشاء منتديات للحوار والتفاهم حتى تستقيم الاجتهادات المتعددة في إطار العودة إلى الإجماع على الأساسيات. ومع ذلك، فإن وحدة الأمة الدينية لا تمنع من التقسيمات الإدارية، لتنظيم شؤون الناس في وحدات جغرافية واقتصادية محلية، لتسهيل تقديم الخدمات الأفضل.

إنّ كل نشاط إنساني يحمل في طياته قيمة معينة، ومهمّة الأمة الإسلامية هي تحقيق تلك القيمة، لذلك فإنّ لدى الأمة الإسلامية حكماً في كل سلوك بشري، لأنَّ الشريعة شاملة لأوجه النشاط جميعها. وأحكام الشريعة تراعي الزمان والمكان عند تطبيقها، وتتطور صور تطبيقها مع المستجدات، وثمة قواعد أصوليه تفتح المجال للتجديد والاجتهاد في الوقائع الحادثة، التي تسمح بالقول

إن الشريعة صالحة لكل زمان ومكان. وهذا ما جعل الإسلام يتصف بالحيوية التي تعطي لأتباعه مفاتيح لكل ما يجدونه مقفلاً أمامهم، والناس هم الذين يستخدمون هذه المفاتيح فينطلقوا في الآفاق أو يختاروا البقاء في سجون العجز والتخلف.

إن القيم العليا التي تجعل المسلم يبذل كل شيء، ويضحي بنفسه في سبيل الإسلام، عندما يتطلب الموقف ذلك، لا تمنع المسلم من التمتع بأشكال القيم النفعية المتأصلة في الفطرة البشرية، فقد زين الله للناس حب الشهوات من النساء والبنين، وكثرة الأموال والزينة، والطيبات من الرزق، فليس ثمة ما يمنع من أن يأخذ المسلم نصيبه منها في الحياة الدنيا، لكن هذا التمتع يجب أن يبقى محكوماً بقيم العدل والاعتدال والتوازن، ومنع أي انحراف نحو الظلم والغش والاحتكار والإسراف، حتي تبقى خصائص الترابط التراحم والتكافل قائمة بين أبناء الأمة، تماماً كما تترابط أعضاء الجسم الحي وتتكافل. وفي الوقت نفسه، فإن هذه العضوية هي عضوية حيوية فاعلة تسمح بالمبادرات الشخصيه والنمو الذاتي والإبداع الفردي، فالفرد في جسم الأمة ليس سناً في عجلة، يفتقد الذاتية وترتفع عنه المسؤولية.

القيمة في الإسلام هي هذا التوسط والتوازن، فإذا كانت العصبية القبلية والعرقية، سواء في اليهودية أو الجاهلية العربية، تمثل اللاقيمة في جانب، وإذا كانت الفردية والرهبانية المسيحية تمثل اللاقيمة في الجانب الآخر، فإن الوسطية والاعتدال والتوازن هي القيمة في الإسلام.

٢ - تجليات التوحيد في النظام السياسي[١]

التوحيد قيمة مركزية في الإسلام، وهي مصدر القيم الأخرى، وتتجلى مضامينها في أنظمة الفكر والحياة جميعها، من النظام السياسي إلى النسق الجمالي والفني. ففي المجال السياسي تتجلى قيمة التوحيد أساساً في وحدة الأمة التي

(١) Ibid., p. 141–155, and p. 185–193.

تعدُّ شرطاً أساسياً لتحقيق مقاصد الخلافة السياسة الإسلامية. والمقصود هنا هو أنَّ الأمة هي الوحدة التكوينية الكبرى في النظام السياسي الإسلامي. وإذا كان التوحيد هو صفة الله الواحد سبحانه فإنَّ ذلك يقتضي وحدة الأمة، المنتسبة إلى دين الله: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٩٢] والأمة مفهوم إسلامي فريد يتصف بالعالمية التي تتجاوز العِرق واللون واللغة والأرض، وتتجاوز السلطة السياسية، وبذلك تُمكّن المسلمَ الذي ينتمي إلى عقيدة التوحيد من أن يقوم بواجباته تجاه دينه، ويتمتع بحقوقه الشرعية في أي مكان على وجه الأرض يسمح له بذلك، وله أن يتقيد بالقوانين المدنية للمجتمع الذي يعيش فيه، ما دامت تسمح له بأداء واجباته ولا تتناقض مع حياته الإسلامية، ومن ثم يكون بسلوكه وخلقه أنموذجاً جاذباً إلى دينه، يشجع الآخرين على الدخول فيه، ومن ثمَّ الانتماء الى الأمه الإسلامية. وإذا لم يتمكن من ممارسة حياته الإسلامية فأمامَه اختيار الهجرة إلى بلد آخر يمكِّنُه من ذلك: ﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ﴾ [النساء: ١٠٠].

إنَّ انشغال الجيل الأول من المسلمين بأحاديث الرسول ﷺ وتفاصيل سيرته وسيرة أصحابه، كان تعبيراً عن طبيعة الإسلام الذي آمنوا به وما أنتجه تحقيق القيم الإسلامية من حركة في التاريخ، فهو في المقام الأول دين عملي واقعي تطبيقي، وليست فكرة طوباوية، فقد كانت هذه التفاصيل تنقلهم من الفهم النظري التجريدي إلى مجالات تحققه في واقع العمل، لأنّ هذه التفاصيل العملية هي تمثلات لقيم الدين، ومن ثم يكون لها تأثير تربوي فعال يقرب هذه القيم إلى الفهم والأدراك.

وتجتمع في المفهوم الإسلامي للأمة الواحدة ثلاث خصائص:

الخاصية الأولى أنَّ الأمة واحدة في رؤيتها للعالم، فهي رؤية متطابقة في الفكر والوعي، وتتكون هذه الرؤية الإسلامية للعالم من معرفة القيم المكونة للإرادة الالهية، وما يترتب عليها من حركة في التاريخ، ومن ارتباط هذه القيم

وحركتها في الحاضر القائم، والمستقبل المنشود، ومن انفتاح دلالات هذه القيم وتجسُّدها التاريخي مع المستجدات، التي تجعل الإنسان المسلم يستوعب هذه القيم بصورة متجددة؛ لإدراك الواقع وقضاياه، والاجتهاد في تنزيل هذه القيم على الواقع ومستجداته، وهو ما يعطي للقيم الإسلامية حيوية وفاعلية متجددة.

والخاصية الثانية أنَّ الأمة واحدة في تجاربها ومواجهاتها للوقائع والأحداث، وفي توجهها للعمل؛ لترجمة القيم التي تحدد ما يجب أن يكون، إلى ممارسة عملية على مستوى الأفراد والجماعات والقيادات، وبذلك يتحقق اجتماع الأمة في أهدافها المنشودة، ويتحقق لها نظامها العملي الذي يوجِّهُ نشاطها باتجاه هذه الأهداف.

والخاصية الثالثة أنَّ الامة واحدة في توجهها العملي، وإبداعها المادي، وإنجازها الحضاري الدنيوي؛ فذلك كله من متطلبات استخلاف الإنسان، ومن ثم الأمة الإسلامية، في الأرض، لينتفع بخيراتها وفق السنن الكونية، ويستخرج خزائنَها، ويوظف طاقاتها، فيتحقق للإنسان ما قُدِّر له من الاستمتاع المشروع في هذه الدنيا، وتطوير رغد العيش والأمن النفسي والاجتماعي، والحيلولة دون انتشار الجهل والفقر والمرض، أو التخفيف من آثارها على الأقل.

هذه الخصائص الثلاث تعبر عن إجماع الأمة الإسلامية في هذه الحالات، وهو إجماع في الرؤية، وإجماع في الإرادة، وإجماع في العمل.

إنَّ المشكلات السياسية التي يعاني منها العالم الإسلامي اليوم كثيرة ومعقدة، ولكنَّ أكثرها ظهوراً هو فقدان القيادات السياسية للرؤية الإسلامية، وفقدان يقينها بقدرة الإسلام والالتزام به على الخروج بالأمة مما هي فيه من ضعف وتخلف وغثائية. وفي الوقت الذي تقوم فيه هذه القيادات بإنارة الشعلة اللازمة لتحريك الأمة في اتجاه صنع التاريخ وقيادة البشرية وترشيد الحضارة، تكون خلافة أبي بكر الصديق أشرفت لحظتها وبدأت مسيرتها.

إن قيمة التوحيد المتمثلة في شهادة "لا إله إلا الله " تعني فيما تعنيه أنّ الهداية الإلهية صالحة للناس جميعا، وأنَّ الأمَّة هي قاعدة التجمع الإنساني، وأنَّ مفهوم الأمة مفهوم ديني إسلامي، يختلف عن المفاهيم الدينية غير الإسلامية، فهو يعطي الحق لأتباع الأديان الأخرى أن يتجمعوا على أساس دينهم، ويحث على ذلك، ويستوعبهم في مجتمع المسلمين، مع الاحتفاظ بكياناتهم الدينية الخاصة بهم، ويبقى دستور المجتمع المسلم يحمل رسالة مفتوحة إلى العالم كله، للدخول في الإسلام أو الدخول في أمان الإسلام، مع التفاعل البنَّاء، والتعاون المثمر في حماية الحقوق وتوفير الرعاية والتمتع بالسلام. وهكذا فإنَّ هذه الخاصية العالمية لقيمة التوحيد، والنظام المفتوح على العالم هو دعوة مفتوحة إلى السلام، ولا تضمن بالضرورة دخول الناس في الإسلام، وإنَّما تضمن إقامة علاقات سلام تزول معها نوايا الحرب، وتتحقق فيها حرية الإنسان وكرامته في التفاهم والتجاور والتعامل والتعاون مع مواطني المجتمع المسلم، في مجالات الاقتصاد والاجتماع والفكر والثقافة، ولكل إنسان مطلق الحرية في الاستمتاع والاختيار، فإنَّ حرمان الناس من الحرية هو انتهاك لكرامتهم الإنسانية.

وحين يمتلىء العالم بالقيم تتحقق إرادة الله، وتصبح رعاية الإنسان لهذا العالم والمحافظة عليه من قبيل العبادة. إنَّ كل شيء من مخلوقات الله هو أداة لتحقيق إرادة الله المطلقة، ويمثِّل قيمة كونية عليا، والإنسان مخلوق مكرَّم، يملك القدرة والإرادة على تحقيق إرادة الله سبحانه، فهو ليس في مأزق يعجز عن الخلاص منه، ومن ثم فليس هو في حاجة إلى منقذ أو مخلِّص، وكل ما يلزمه هو القيام بواجباته، وترتفع قيمته بقدر ما يحقق من إنجازات. وقيمة التوحيد تقضي كذلك أنَّ إرادة الله سبحانه هي تحقيق الخير لجميع البشر، فالعمل الأخلاقي يملك القيمة نفسها، بقطع النظر عن أعراف الناس أو ألوانهم أو أماكن وجودهم، وهذا يجعل الحياة الأخلاقية عالمية بالضرورة، وذات طبيعة مجتمعية.

٣ - تجليات التوحيد في النظام الاقتصادي[1]

يرى الفاروقي أنّ البعد القيمي المترتب على شهادة "لا إله إلا الله" هو من أهم تجليات التوحيد في الإسلام؛ وهو يعني أنَّ الله سبحانه هو القيمة النهائية، وأنَّ كل شيء آخر يستمد قيمته من الله سبحانه، بقدر ما يحققه من مشيئة الله وإرادته. وعبادة الإنسان لله سبحانه هي التي تحقق الإرادة الإلهية، وهذا هو ما يعطي القيمة الحقيقية للزمان والمكان، لذلك فإنَّ الهدف الإلهي من خلق الكون هو بناء عالم تملؤه القيم عن طريق امتلاك الإنسان للرؤية الكونية الإلهية لهذا العالم، والعمل الأخلاقي الصالح الذي يملأ به حياته. وقد شرع الله للإنسان أن يتمتع بهذا العالم المملوء بالقيم الأساسية التي تذكِّره بالله، فيرى أنَّ واجبه المحافظة على هذا العالم وتحسينه وتجميله، فكل شيء فيه يحمل قيمة كونية عليا، فالبشر جميعاً متساوون ولا يتفاضلون إلا بالعمل الصالح (التقوى). وكذلك الأشياء كلّها في هذا العالم، تسلك وفق سنن الله وقوانينه. وقيمة كل منها تكمن في تسخيرها للإنسان؛ ليرتقي بهذا العالم إلى الصورة التي يريدها الله سبحانه.

وقد تميّز الإسلام بوصفه دين التوحيد بتأكيده العلاقة التوحيدية المتوازنة بين المادي والروحي، وهو بهذه الميزة يسعى إلى تحقيق النفع والخير للبشر جميعاً، وذلك بالحرص على العمل، والانتفاع بخيرات الأرض، وتوظيف طاقاتها، وتوفير المأكل، والمشرب، والملبس، والمسكن، وجمع الثروة، وإنشاء العمران، وتوفير متطلبات الحياة المادية للناس. وأيُّ تقدُّم وارتقاء روحي يلزم أن يصاحبه تحسن مادي، وإذا انعدم التوازن بينهما اختل نظام الحياة.

ويقوم النظام الاقتصادي في الإسلام على مبدئين؛ الأول: عدم شرعية قيام فرد أو مجموعة باستغلال الآخرين، والثاني: عدم شرعية قيام أي فرد أو مجموعة بإنشاء حصار اقتصادي على الآخرين أو حجر عليهم. وقد أوضح ابن خلدون كيف أن مثل هذه المبادىء هي سنن كونية واجتماعية، فالإنسان مدني بالطبع،

---

(١) Ibid., p. 157-183.

ولا تقوم حياته إلا بالاجتماع؛ ليتحقق التعاون والتكامل في داخل المجتمع، وبين المجتمعات البشرية، التي تتشابك مصالحها ويعتمد بعضها على بعضها الآخر. لذلك ألغى النبي ﷺ الترتيبات التي كانت قائمة بين القبائل، ليحرر التنقل وحركة التجارة، وألغى عمر بن الخطاب رضي الله عنه جميع الحدود والمراكز الجمركية حتى أصبح انتقال الأشخاص والبضائع حراً بين أراضي الدولة الإسلامية، وأكثر من ذلك فإنَّ حركة التجارة الخارجية بين الولايات الإسلامية والدولة البيزنطية بقيت حرة حتى في حالة العداء والحرب.

وكما كان للتوحيد في الاقتصاد الإسلامي قيمتُه في وضع المبادىء العامة للاقتصاد، فقد كان للتوحيد تجلياته في أخلاقيات العمل ومبادىء الإنتاج، ومن ذلك "الحث على الحد الأقصى للإنتاج؛ أي أن ينتج المرء، أكثر مما يستهلك، ويقدم من الخدمات أكثر مما يستعمل، ويعطي للعالم عند انتهاء أجله أكثر مما أخذ من الخدمات، ومن ذلك أن يكون الإنتاج الزراعي والصناعي فيما يفيد الإنسان المستهلك لهذا الإنتاج، دون إضرار بالموارد التي استخلف فيها الإنسان ليعيدها إلى صاحبها أصلح مما وجدها عليه، أو على حالتها الصالحة على الأقل، ومن ذلك أن تكون المنتجات أو الخدمات خالية من الغش أو الخديعة، ليس خوفاً من مراقبة مؤسسات الحسبة، وإنَّما انسجاماً مع القيم النبيلة المنبثقة عن قيمة التوحيد العليا، ومع الفطرة الأصلية التي تقضي عمل الخير، وانقياداً للإرادة الإلهيه، وما يؤديه الانقياد لها من سعادة الضمير والطمع في أجر الآخرة.

وكما كان للتوحيد تجلياته في أخلاقيات الإنتاج، فكذلك شأنه في أخلاقيات الاستهلاك، فالتوحيد يعطي الإنسان المسلم مبدأ الإيجابية نحو العالم، ومن ثم يمنحه شرعية الاستهلاك، الذي يعني الوعي على القيم المادية وتلبيته الاحتياجات الأساسية في حد أقصى لا يصل إلى التبذير والإسراف. أما فائض الإنتاج فيعاد استثماره لزيادة الإنتاج وإغناء الأمة، وإنفاقه في وجوه الخير والخدمات الاجتماعية، طمعاً في مرضاة الله وإعمالا لقيم التراحم

والتكافل. وأبواب الإنفاق مفتوحة لسد الحاجات الأساسية على مستوى الفرد وعلى مستوى المجتمع والدولة. فعلى مستوى الفرد ينفق الفرد على ذويه إنفاقا إلزامياً، ويدفع الزكاة المفروضة في وجوهها المحددة، ويتصدق تطوعاً في الوجوه الأخرى، وعند الموت يوزع الميراث ضمن نظام غاية في الدقة والعدالة. وعلى مستوى الدولة ثمة خزانة عامرة لها موارد محددة من الملكية العامة، ومن الزكاة الفائضة عن حاجة الناس، ومن حق المجتمع من أموال الأغنياء سوى الزكاة، تنفق الدولة على تقوية الأمة وحمايتها، وتنشئ المشاريع الإنتاجية الاستثمارية في الزراعة والصناعة والخدمات، وتنفق من هذه الموارد على رواتب الجند والموظفين في المصالح العامة، وتفتح الطرق وتؤسس المدارس والمشافي، إلخ.

إنَّ أخلاقيات النظام الاقتصادي في العمل والإنتاج والاستهلاك كفيلة بتحقيق السعادة للناس في حياتهم المادية والروحية، ضمن نظام قيمي يتصف بالإيجابية والمسؤولية والعدالة.

٤ - تجليات التوحيد في مجال النظام المعرفي[١]

تأتي أهمية بيان علاقة التوحيد بالمعرفة من أنَّ الفكر الغربي المعاصر لا يزال يتأرجح بين فكرتين: تقوم الأولى على المذهب التجريبي الحسي، الذي يرى أنَّ كل معرفة دينية هي معرفة دغمائية لا يمكن إثباتها ولا قيمة لها، ويكفي الفرد أن يجعل المعرفة الدينية مبنية على الاعتقاد بصحتها، دون أن تخضع للنقد العقلاني والتجربة الحسية. ووفقاً لهذه الفكرة فإنّ المعرفة الدينية في العقل الغربي قد تأثرت بالصراع المرير بين الكنيسة المسيحية في القرون الوسطى والعقل العلمي التجريبي، ذلك أنَّ موقف الكنيسة تجاه المعرفة كان موقفاً دغمائياً يفترض صحة المسائل دون إخضاعها للتحليل العقلي المنطقي أو التجريبي. ولما كان العقل العلمي قد انتصر في النهاية، ثم حقق إنجازات باهرةً، فأصبح من السائد تصنيف

---

(١) Ibid., p. 39-48, and p. 49-60.

المعرفة الدينية على هذا الأساس. وتقوم الفكرة الثانية على المذهب الرومانسي وهو مسايرة الفكرة الأولى، والاعتراف بأنّ المعرفة الدينية ليست موضوعاً للتفكير العقلي والاختبار التجريبي، والتأكيد في المقابل على أنَّ هذه المعرفة تقوم على التجربة الشخصية وليست قابلة للاختبار، فهي صالحة وصادقة بالنسبة لصاحب التجربة، وهذا يكفي لإرساء دعائم التدين المسيحي.

أمَّا الاعتقاد الديني القائم على التوحيد في الإسلام فيعتمد على أنّ حقائق الإيمان هي حقائق عقلانية، قادرة على النجاح في امتحان الشك والاختبار، ومن ثم فإنَّ إيمان المؤمن هو إيمان عقلاني يقوم على الوضوح والاستدلال والحجة والبرهان.

والتوحيد الإسلامي بوصفه مبدأ للمعرفة يعترف بأنَّ الحقيقة قابلة للمعرفة، وهي في متناول يد الإنسان حين يقوم بمهمته الاستخلافية في التفكير والبحث. أما عندما يكون اعتقاده الديني مبنياً على الإيمان بعجز الإنسان عن الوصول إلى الحقيقة، فذلك ارتهان للشك، وانتهاء إلى العدمية، وتغييب للقيم المرجعية، فإدراك القيم مبني بالضرورة على قدرة الإنسان على إدراك ما يمثل القيمة وما يميزها عن الدعاوى الفارغة.

وهكذا فإنَّ التوحيد تضمّن بالضرورة وحدة مصادر المعرفة في نهاية المطاف، سواءً كانت هذه المعرفة وحياً إلهياً صادقاً، أو استدلالاً من عالم الكون وظواهر الطبيعة، التي حث الوحي على تأملها وتدبرها والسير في أنحائها، لاكتشاف السنن والطبائع وفهم الظواهر والوقائع. والتوحيد تضمَّن بالضرورة كذلك، أنَّ الله سبحانه مصدر كل القيم وكل صور الخير والفضيلة، فالله سبحانه هو الذي أعطى القيمة قيمتها، وليس ثمة مصدر آخر يعرف القيمة بشيء آخر، ولذلك يؤمن المسلم أنَّ أفعال الله خيرٌ كلُّها، والله سبحانه منح الإنسان ما منحه من ملكات وقدرات ليهديه سواء السبيل. وهذا يمكِّن المسلم من أن يكون متفائلاً، يرى وجوه التيسير والسعة في حياته، فيواجه المشكلات والتحديات

بجرأة وشجاعة؛ لأنَّه يتطلع إلى ما يكون وراءها من خير. وعندما يتعامل المسلم مع غير المؤمنين بالإسلام من أصحاب الأديان والمذاهب الأخرى، فإنَّه يتعامل معهم بالحكمة والموعظة الحسنة، ويبحث عن "الحسِّ المشترك" الذي يتجاوز الاختلافات، وعن الفطرة البشرية السليمة التي تدفع جميع الناس إلى التعارف والتفاهم والتعايش لتبادل المصالح والمنافع وبناء الحضارة.

وفي الوقت الذي يستند فيه التصور الكوني الطبيعي في الديانة الهندوكية إلى مجموعة من الأساطير، ويستند في الديانة المسيحية إلى فكرة السقوط في الشر والخطيئة، فإنَّ التصور الكوني في الإسلام يستند إلى أنَّ الكون مخلوق صالح ومنظم وغائي، وهو مسخر للإنسان، فهو هبة الله للإنسان؛ لتمكينه من مهمة الاستخلاف. فالنظام والانتظام في الكون هو الذي يمكن الإنسان من الملاحظة المنظمة، التي تعينه في اكتشاف أوامر الله، وهي القوانين والسنن، ومن ثم تطوير العلوم الطبيعية. أما الجوانب الاجتماعية والنفسية المختصة بالاجتماع البشري، فهي جزء من هذا الكون، وهي تخضع كذلك لسنن وقوانين تمكن الإنسان أن يكتشفها، فيطور من خلال هذه الاكتشافات العلوم الاجتماعية والإنسانية. وكل هذه العلوم هي ما يفهمه الإنسان عن إرادة الله سبحانه وأوامره في تدبير الكون، بمستوياته الطبيعية، والاجتماعية، والنفسية. لذلك فإنَّ الإنسان المسلم يؤمن أنّ الله الواحد هو العلة الوحيدة لكل شيء في الكون، وأنَّ الكون إنما يحدث بإرادة الله عن طريق المسببات الحادثة في الزمان والمكان، وكلها تخضع للبحث التجريبي والاستدلال العقلي. هذا التوحيد يلغي بالضرورة الاعتقاد بالسحر والشعوذه والخرافات والأساطير، ويتيح المجال لحركة العلم على هدى وبصيرة.

ولا يزال الكثير من علماء الغرب يرفضون فكرة الإله الخالق المدبر، بسبب كراهيتهم لسلطة الكنيسة التي كانت تكرس المقولات الخرافية، وتخنق حركة البحث والاكتشاف العلمي، فقد مارست الكنيسة من أجل حماية سلطانها ألواناً من البطش بالعلماء، لكنَّ حركة العلم هزمت سلطان الكنيسة في نهاية المطاف،

وأدت هزيمتها إلى إرساء ما عرف بالعلمانية التي كانت تعني إلغاء هيمنة الدين الكنسي على التقدم العلمي، مما كان أمراً مشروعاً ويستحق التقدير، ولكن هذه العلمانية تجاوزت -فيما بعد، ومع الأسف- رفض سلطان الكنيسة إلى رفض الدين جملة.

وهكذا كان التوحيد شرطاً لانطلاق العلم، فالله الواحد سبحانه هو الذي أرسى النظام في الكون عن طريق السنن والقوانين، وهي قوانين تمكِّن للإنسان من اكتشافها ومعرفتها عن طريق البحث العلمي، القائم على الاستدلال العقلي والملاحظة التجريبية. والكون بأشيائه وأحداثه وظواهره، كلها تسلك في وجودها وحركتها وفق القوانين والسنن، ليتم بذلك ما أراده الله لها من أهداف وغايات، فالنظام والتوازن والتقدير في المخلوقات المشهودة، والمخلوقات غير المرئية للإنسان في البر والبحر والفضاء، كلها تسهم في حفظ هذا الكون بإذن الله، وإبقائه صالحاً إلى أن يشاء الله.

وإدراك الانتظام والاتساق والجمال في هذا الكون، يكشف عن سمو الخالق وعظمته، إلى الحد الذي يقف العقل البشري أمامه خاسئاً، تعبيراً عن الإعجاب والتقدير، ومن ثم إدراك القيمة السامية التي تمثلها إرادة الله ووحدانيته. لذلك لا يملك الإنسان إلا أن يدرك أنَّ هذا الكون هو ملك لله، والإنسان مستخلف فيه، مؤتمن عليه، يحفظه من الاختلال والاستغلال التخريبي المدمر، وله في حدود ذلك أن يستمتع بخيرات الكون وطاقاته بوحي من الأخلاق النبيلة، متجنباً الإسراف والتبذير، والاحتكار والغش، حتى تصل نعم الله المبذولة للإنسان في الكون إلى سائر الناس، في كل جيل، ولسائر الشعوب والأمم، دون أن ننسى نصيب الناس في أجيالهم القادمة.

هذه هي الرؤية الإسلامية للكون والإنسان، أما الرؤى الكونية في الحضارات الأخرى فتختلف عن ذلك تماماً؛ فالحضارة الإغريقية مثلاً حضارة وثنية، تؤمن بتعدد الآلهة، وقد صوّرت الآلهةَ في صورة خصائص الإنسان

المعروفه من الخير والشر والصلاح والفساد، ولذلك لم يكن غريباً أن تُظهِر هذه الحضارةُ آلهتَها في صورة كائنات يحارب بعضها بعضاً، وتلجأ إلى الخداع والتآمر، وترتكب الزنى والسرقة، وتمارس الحقد والانتقام؛ تماماً كما هو واقع البشر، ولأنّ هذه هي الآلهة فلا بأس أن يمارس الإنسان بعض ما تمارسه الآلهة، وهكذا يكون تأليه الإنسان! أما المسيحية في المقابل فقد اعتقدت بالخطيئة الأصلية التي جعلت الجنس البشري ساقطاً، ولا يمكن التخلص من حالة السقوط إلا أن يتجسدَ الإلهُ في المسيح، ويموتَ على الصليب تكفيراً عن خطيئة البشر. والهندوكية جعلت معظم الناس الهنود في طبقة المنبوذين ووصفت غير الهنود بالنجاسة، وأبقت الصفة العليا لفئة قليلة من البراهمة، ولا يتم الانتقال من طبقة إلى أخرى إلا بعد الموت، بالتقمص والتناسخ، أما العمل الأخلاقي في الحياة فلا قيمة له. والبوذية ترى أنَّ الحياة الدنيا للإنسان وسائر المخلوقات هي شر وبؤس وشقاء، وينحصر دور الإنسان في التخلص من هذا المصير بالانضباط والتأمل والتفكُّر.

وليس من عقيدة غير التوحيد الإسلامي تعطي الإنسان الكرامة والتقدير، دون تأليه أو امتهان، وليس غير عقيدة التوحيد من يعطي الإنسان قيمته الأخلاقية ورؤيته الإيجابية المتفائلة نحو الحياة. وهذه هي إنسانية الإسلام. أما الغاية من خلقه فهي عبادة الله التي تحقق الخير الأسمى وتملأ الحياة بالقيم. فللحياة غاية وهدف أسمى هو تحقيق الإرادة الإلهيه الخيرة من مستوياتها الأرفع شأناً والأعلى منزلة، دون إهمال صور أخرى من إرادة الله التي تُعدُّ وسائل وأدوات لعمران الكون، من مأكل ومأوى وتزاوج، وعلاقات أسرية واجتماعية وغيرها.

والإنسان وحده من المخلوقات المرئية هو الذي يملك الحرية، في تحقيق القيم الأخلاقية، بما أعطِيَ من قدرات لم تُعْطَ لغيره من المخلوقات. ويولد كل فرد إنساني بريئاً من كل خطيئة، ليس له ذنب موروث من جدِّه الأعلى، ولا من والديه أو عشيرته أو وطنه. صحيح أنَّ من خصائص الطبيعة البشرية الحرصَ

وإشباعَ الغرائز وتحقيق اللذات وامتلاك القوة، وغيرها من مظاهر النقص، لكن كل ذلك هو من حقائق الطبيعة المكونة لخلق الإنسان، وليست من اختياره، ولا يأثم بوجودها في طبيعته، وإنما هي عناصر تستدعي مزيداً من التقدير والتكريم للإنسان، حين يرتفع بوعيه الأخلاقي إلى اختيار الأعمال الصالحة النافعة، التي تنسجم مع مسؤوليات الخلافة والأمانة والسعي في تحقيق القيم العليا.

والإنسان في الرؤية التوحيدية الإسلامية مخلوق في أحسن تقويم وأحسن صورة في تكوينه الجسدي وتكوينه الروحي، فقد منحه الله روحاً وعقلاً وملكات حسية تمكِّنُه من اكتساب المعرفة واختبارها وتوظيفها، وهي مشتركه لدى الناس جميعاً. والعقل الإنساني أثمن ما منحه الله للإنسان، وبه يكون التكليف بحمل الأمانة، وبفقدانه ترتفع المسؤولية عن الإنسان. وبهذا العقل يقوم الإنسان بأعماله ويتحمل مسؤوليتها من سعادة أو شقاء، وهو حين يختار العمل ينطلق من نيّة دافعة إلى العمل، وينتهي من العمل بنتائجه المترتبة عليه، وهو مسؤول عن النيّة وعن النتائج معاً؛ فأخلاقية النية لا تغني عن أخلاقية العمل، وبذلك السعي الإنساني يصنع التاريخ البشري.

وتوحيد الله في الإسلام يشمل توحيد النشاط الإنساني في صور يشترك فيها أفراد الأمة، فيما ينشؤونه من النظم والتشريعات، لتحقيق الإرادة الإلهية وسيادة القيم التي تعبر عنه، وتتسع صور النشاط الإنساني الأخلاقي الذي تؤديه الأمة بأفرادها وجماعاتها؛ لتشمل العالم كله والناس أجمعين. وتتسع صور النشاط الأخلاقي التي يؤديه المسلمون في الحياة؛ لإشباع المتطلبات والحاجات الفطرية، فلا رهبنة، ولا تعذيب للجسد، ولا زهد تجاه الحياة، وتشاؤم من زينتها، بل طعام وشراب، وزواج ومتعة، واستئناس بالصحبة بين الناس، واستمتاع بجمال الطبيعة، وزراعة وصناعة، وفنون ومدنيَّة، كل ذلك عبادة لله، ما دام يتم بتوازن وحكمة خالياً من العدوان والاحتكار والأذى والغلو، مستهدفاً الاستعانة به على تحقيق الخير للجميع وفق إرادة الله وطلباً لمرضاته.

حين يؤمن المسلم بعقيدة التوحيد تتحول هذه العقيدة في نيّته، وفي عمله، إلى قوة أخلاقية، تدفعه للحركة في الكون، لتحقيق إرادة الله سبحانه، ويدخل ميادين الحياة في سائر مناحي النشاط الإنساني، حتى يُحدث التغيير المطلوب. فهذا العالَم هو عالَم السعي لكسب الرزق، وحقل العمل الذي يباشر فيه الإنسان مهمته الكونية. وثمّة عالمٌ آخر في ضمير الغيب، هو عالم البعث والحساب. وعندما تأتي الساعة فلن يكون هناك مجال لكسب آخر وسعي آخر، بل هو الجزاء والحساب على ما أنجز الإنسان في حياته الدنيا. فالتاريخ ممتد من الدنيا إلى الآخرة، وهو ليس المطلق الحتمي الضروري، وإنَّما هو فعل الإنسان وكسبه، ونجاحاته وأخطاؤه، وهو المسؤول في نهاية المطاف عن نتائج هذا الفعل. لذلك فالإنسان هو محور التاريخ، وهو المكلف بأن يحقق إرادة الله في التاريخ.

هكذا نفهم سيرة النبي ﷺ، فبعد نزوله من غار حراء، وهو يحمل الرسالة، جاءه الأمر بالقيام ﴿ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾. فتحرك تبعاً للإرادة الإلهية، وأخذ يبلِّغ الرسالة ويتحمل أعباءها، وينتقل بها من مكان إلى آخر، ويرفض طلب عمِّه أبي طالب بالتوقف عما كان يقوم به من تغيير للمجتمع. وهو من أجل تبليغ الرسالة وتنفيذ المهمة هاجر إلى المدينة وأسس الدولة، ووضع دستورها، وعاش زوجاً وأباً وجدَّاً وصديقاً، وعانى من الفقر، ودخل الحروب فانتصر في بعضها، ولم يتحقق تمام النصر في بعضها الآخر، ومارس الحكم والقضاء، وكان في كلّ ذلك قدوة لأصحابه، فاقتفوا أثره، وفتحوا البلاد، وأقاموا النظم وأنشأوا الحضارة، وملأوا صفحات التاريخ بالمعرفة والعلم والمنجزات.

٥ - تجليات التوحيد في النظام الجمالي(١)

اخترع الفنان المسلم في سيره على خط التفكير التوحيدي فنَّ التزيين، وطوَّره إلى نسق (الأرابسك) في تصوير تجريدي، يتمدَّدُ بصورة لانهائية في

---

(١) Ibid., p. 195-215.

جميع الاتجاهات، حتى انفصل عن الطبيعة المادية للأشياء، واستحال إلى حقل النظر فقط. وحتى عندما استخدم الفنان المسلم هيئات النبات أو الحيوان أو الإنسان في رسومه، فإنَّه شكَّلها حتى خرجت عن طبيعتها المادية، ووظَّف تراثه اللغوي والأدبي؛ ليصبح لوحة ممتدة من المعاني والأفكار، وأسقط قيمه الجمالية على المباني فجعل المبنى "نسقاً": في واجهته، وفي مسقطه الرأسي، وفي منظره الخارجي وفي مخطط أرضيته. وبذلك أصبح التوحيد هو القيمة التي تفسر أعمال الفنان المسلم الذي صهر الإسلام نظرته إلى الكون بصرف النظر من مكانه في الجغرافيا أو صفته في اللغة أو العرق.

إنَّ غياب الفنون التشخيصية في النحت، والرسم، والدراما في الفن الإسلامي كان تعبيراً عن قيمة التوحيد المطلقة، المتمثلة في تنزيه الإله الخالق من صفات المخلوقين، ومن ثم تجريد التوحيد من الشرك، والتعالي الإلهي عن التجسيد الطبيعي. ذلك أنَّ التعبير عن الإله في شكل من أشكال الطبيعة، حتى لو كانت صورة الإنسان نفسه، هو تعبير سطحي ساذج، يعجز عن تصوير المتعالي الذي يستحق تمام الألوهية. وفي حين أنَّ الإدراك الإسلامي أنَّ الله سبحانه لا يمكن التعبير عنه بشكل مادي مرئي هو أعلى قيمة جمالية يمكن للإنسان أن يصل إليها؛ فلا شيء من المخلوقات المادية يمكنه أن يمثل الإله في تعاليه وكماله، فهو سبحانه ليس كمثله شيء، وهذه قمّة الوعي بالجمال.

ويرى الفاروقي أنَّ الفنَّ في عقيدة التوحيد هو القراءة في الطبيعة لجوهر ليس طبيعياً، وإعطاء هذا الجوهر الشكل المرئي الملائم له، وهو بالضرورة افتراض أن نجد في الطبيعة ما ليس فيها، وهذا خارج عنها، ومنزَّه عنها، لا ينطق إلا على خالقها المتعالي. هذا الجوهر القبلي الذي يكون موضوعا للتذوق والإدراك الجمالي هو قيمة الجمال التي تحرك العواطف الإنسانية، فترتقى هذه العواطف الإنسانية، متعالية على الأشكال المادية الخالية من القيمة الحقيقية.

وقدم الفاروقي تفسيراً لطيفاً عن قيمة التعبير الجمالي في الإسلام، وهو التعبير عما لا يمكن التعبير عنه! فالتعبير الحسيّ عن عدم إمكانية التعبير عن الإله بصورة حسية أمر يذهل الفنان. وقد قام به الفنان المسلم ضمن ما سماه الفاروقي "النبوغ الفني الإسلامي" و"الاختراق الفني الإسلامي". وأعطى الفاروقي مثالاً على ذلك حين مثَّل الفنانُ المسلم النبتة أو الزهرة بعيداً عن الشكل الفردي لها، بل تصورها مكررة بلا حدود، وبذلك ألغى فرديتها، وطرد الصفة الطبيعية عنها من الوعي الإنساني، فالتعبير الجمالي عن اللاتناهي واللاتعبير بوساطة تكرار الموضوع المشكل هو محاولة للوصول إلى نتيجة مشابهة للشهادة (لا إله إلا الله) في التعبير اللفظي.

وبيَّن الفاروقي بعض جوانب العبقرية في اللغة العربية والشعر العربي، وهي الجوانب التي كانت فخر العرب قبل الإسلام، ثم جاء القرآن الكريم ليبلُغَ بالعربية من الذروة والسمو ما صنع للعربي، ثم للمسلم بعد ذلك، قيم الجمال ومعاييره والتعبيرات النفسية الراقية عنه، في الشكل المرئي، والصوت المسموع، والمعاني الكلية العميقة. وأخيراً أوضح الفاروقي مفهومَ "النَّسق"؛ أي الأرابسك وتمثلاته في رسم الأشكال وكتابة الخط العربي بما يمثل القمة في فنِّ الوعي بالتعالي.

تجليات التوحيد عند الفاروقي

النظام المعرفي

- المرجعية التوحيدية في مصادر المعرفة، وأدوات اكتسابها وفق منهجية التكامل المعرفي.
- حقائق الإيمان حقائق عقلانية تقوم على الوضوح والاستدلال والحجة والبرهان.
- كل العلوم هي فهم الإنسان لأمر الله في تدبير الكون الطبيعي والاجتماعي.

النظام الاجتماعي

- وحدة المرجعية في الحقيقة والقيم تحقق السلام.
- وحدة الاجتماع البشري بدأ من أسرة واحدة امتدت وتوسعت.
- مضامين التوحيد تبني مجتمعاً عالمياً ينظم كل شؤون الحياة.
- التكريم للذكر والأنثى مع تكافؤ فطري في الحقوق والواجبات.

النظام السياسي

- وحدة النظام السياسي انعكاس لوحدة الرؤية إلى العالم
- وحدة الأمة في نظامها، ورؤيتها للعالم، وتعاملها مع الوقائع، وتوجهها للإبداع الحضاري.
- نظام الأمة الواحد قاعدة التجمع الإنساني الذي يوفر الكرامة والحرية وفرص التعاون والتكامل.

النظام الاقتصادي

- تجليات التوحيد في مبادئ الاقتصاد، وأخلاقيات الإنتاج والاستهلاك.
- العلاقة المتوازنة بين المادي والروحي، وانعدام التوازن هو اختلال في نظام الحياة
- نظام قائم على عدم شرعية الاحتكار والاستغلال وعدم شرعية الحصار .

النظام الجمالي

- غياب الفنون التشخيصية تعبير عن التوحيد المطلق.
- طريقة الزخرفة التجريدية اللانهائية. في الزخارف الهندسية والنباتية- الأرابيسك.
- التعبير الجمالي هو تعبير عما لا يمكن التعبير عنه!
- قمة الوعي بالجمال أن الله الواحد يتعالي عن المثل.

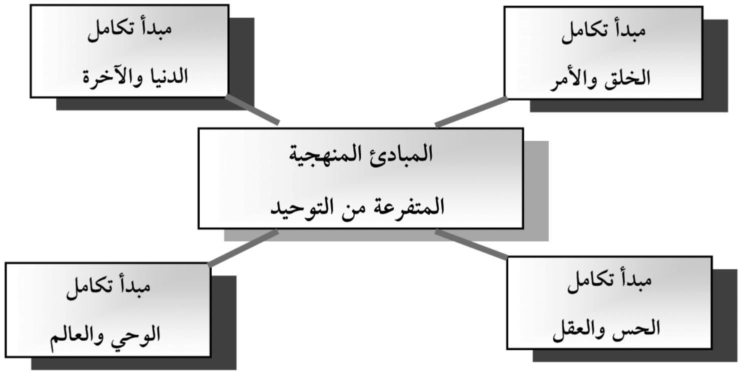
خاتمة الفصل

لا يختلف علماء المسلمين في أنَّ التوحيد هو أساس الإسلام، وهو الذي يعطي للحضارة الإسلامية هُويَّتَها، وأنَّ التوحيد في الرؤية الإسلامية هو قيمة مركزية، ومصدر للقيم الأخرى، وقاعدة لمضامين هذه القيم في أنظمة الفكر والحياة جميعها، من التفكير والنظر العقلي، إلى النظام السياسي، والاجتماعي، والاقتصادي، إلى النسق الجمالي، والتفكير العقلي، إلخ.

يتضمن مفهوم التوحيد رد الظواهر إلى أصل واحد. والتوحيد ظاهرة متأصلة في الفطرة البشرية، يتعرف إليها الإنسان، ويكتشفها بالنظر والتأمل والتفكر والبحث، حين يرى اضطراد الوحدة، ويتيقن منها بالوحي الإلهي المنزل على الأنبياء. والتوحيد يقابله التعدد، فالإيمان بوحدانية الله سبحانه يلزمه ملاحظة التعدد في كل ما سواه سبحانه. لكن هذا التعدد يتضمن التكامل والتوازن بين الأجزاء في وجودها وحركتها ووظائفها، بصورة دقيقة تتجلى فيها وحدة الخالق المدبر. فأشياء الكون من الذرة إلى المجرة، في تكوينها وبنائها، وفي اتصالها وترابطها، وفي حركتها الداخلية (دوران الإلكترون عكس عقارب الساعة) والخارجية (دوران الأرض، والشمس، والقمر، وجميع النجوم والكواكب والأقمار... عكس عقارب الساعة) قائمة على التناسق، والانسجام، والترتيب. أما أحداث الكون وظواهره من تقلُّب الليل والنهار، وتعاقب الفصول الأربعة، وحركة الرياح، وسقوط المطر، وتجليات الطاقة وتحولاتها، وعلاقات التسخير والتمكين... فإنها تقع بكامل الانتظام وحسن التقدير ودقة الحساب.﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر: ٤٩]، ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾ [الحجر: ١٩].

وإذا كان التوحيد هو القيمة المركزية الأولى في الرؤية الإسلامية، فإنَّ إعْمَال هذه القيمة هو مبدأ أساسي من مبادئ المنهجية الإسلامية في التفكير والبحث والسلوك. لذلك فإنَّ من اليسير اشتقاق مجموعة المبادئ المنهجية

الفرعية من هذه القيمة المركزية، ومن هذه المبادئ على سبيل المثال لا الحصر: مبدأ الخلق والأمر، ومبدأ تكامل الدنيا والآخرة، ومبدأ تكامل الوحي والعالَم، ومبدأ تكامل العقل والحس.



مبادئ منهجية متفرعة عن التوحيد

وقد عرض القرآن الكريم والسنة النبوية موضوع التوحيد بصورة بسيطة، قريبة إلى العقل والوجدان، ثم أصبح التوحيد، فيما بعد، موضوعاً لعلم أخذ عناوين متعددة، واختلطت فيه مقولات كلامية وفلسفية وصوفية، واختلفت طرق عرضه وتعلّمه وتعليمه. وظهرت حوله فرق ومذاهب كان لها أثر في الفتن والمحن التي لحقت بالأمة الإسلامية الواحدة. ومع أنّ بعض الجهود المعاصرة تحاول إعادة صياغة علم التوحيد، لكنها لا تخرج كثيراً عن مقولات علم الكلام التراثية.

ولعله قد آن الأوان أن يعود علماء المسلمين بالتوحيد إلى بساطته الأولى، معتمدين في ذلك على الأثر العميق الذي يحدثه الخطاب القرآني والهدي النبوي في النفس الإنسانية.

الفصل الثاني

التزكية في منظومة القيم العليا

التزكية في منظومة القيم العليا[1]

تمهيد

الحديث عن التزكية هو حديث عن مفهوم مركزي من المفاهيم القرآنية، وهدف هذا الحديث هو الاجتهاد في تقديم رؤية معرفية لهذا المفهوم من مرجعية قرآنية.

والتزكية مصطلح ومفهوم قرآني أساسي، يتخذ موقعاً مهماً ضمن منظومة القيم القرآنية؛ فالتزكية موضوعها الإنسان المستخلف، وهو موضوع الإصلاح في الواقع الإنساني. إصلاح الفرد والجماعة والأمة. والإنسان مادة وروح، والتزكية تشمل المادة والروح. وأي حديث عن قضايا الإصلاح لا معنى له إلا إذا تعلّق بالإنسان، واستهدف ترقيته في مراتب التزكية. والتزكية هدف العمران ووسيلته، فهي ليست مسألة مشاعر وخلجات وخواطر نفسيه، مقصورة على مستوى الإصلاح الفردي، بل تدخل في صميم البناء الاجتماعي والعمران البشرى.

وثمَّة عناصر مهمة لا بد أن يتضمنها الحديث عن التزكية، منها دلالات المصطلح القرآني للتزكية، والتزكية بوصفها مكوناً أساسياً من مقاصد الوحي، وموقع التزكية في مدارس الزهد والتصوف والجهاد. وأساليب التزكية، ومعيقات التزكية.

(١) أصل هذا الفصل مقالة موجزة (كلمة التحرير) نشرت في مجلة **إسلامية المعرفة**، وتم تطويرها فيما بعد. ملكاوي، فتحي حسن. "التزكية في منظومة القيم الحاكمة"، **إسلامية المعرفة**، ع٥٧، صيف ٢٠٠٩م، ص٥-١٢.

أولاً: معجم ألفاظ التزكية في القرآن الكريم

وردت مشتقات زَكَوَ وهو الأصل الثلاثي من لفظ التزكية تسعاً وخمسين مرة، منها: زَكَى، وزكَّى، ويُزَكِّي، وأزْكى، وزكياً، وزكاة، وازَّكى إلخ...، ومنها اثنتان وثلاثون مرة بلفظ الزكاة؛ أي زكاة المال على وجه التحديد، بمعنى التطهير والبركة والنمو، وأربع مرات بمعنى المدح والثناء، وأربع مرات بوصف التزكية واحداً من مقاصد الوحي الأربعة، وبقية الآيات تتحدث عن مجالات مختلفة من التزكية بمعاني: التطهير والترقية والتنمية والزيادة في الحسن والنفع. ونكتفي في هذا المقام بعدد من المواقف لبيان بعض الدلالات المحددة التي يحملها لفظ التزكية في القرآن.

يأتي لفظ التزكية في القرآن الكريم في عدد من الحالات المتمايزة؛ أربع حالات منها محمودة، والخامسة منها حالة مذمومة. وذلك على الوجه الآتي:

١ - حين يكون الإنسان مكتسبا للتزكية

ومطلوب من الإنسان أن يزكي نفسه وبذلك يتحقق له الفلاح والنحاج: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩]، وتتحقق تزكية الفرد بدخوله في دائرة الإيمان: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى﴾ وتتحقق في تجنُّب الدخول في جهنَّم: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾﴾ [الليل: ١٧ - ١٨]، وعندها يكون عائد التزكية خاصّاً بالنفس ذاتها: ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [فاطر: ١٨]. وتُكتَسبُ التزكيةُ المطلوبة بالإيمان والعمل الصالح، وبها يتفضَّل الله على الإنسان بالرضا ويؤتيه الأجر والثواب، نحو: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾ [طه: ٧٥ - ٧٦]. وقد تكون الإشارة إلى التزكية بوصفها حالة لما يكون عليه أمر الإنسان "في الاستقبال لا في الحال، والمعنى: سيتزكى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾ [المؤمنون: ٤]؛ أي: يفعلون ما يفعلون من العبادة ليزكيهم الله، أو ليزكوا أنفسهم، والمعنيان واحد."(١)

(١) الأصفهاني، الراغب. **مفردات ألفاظ القرآن الكريم**. تحقيق: صفوان داوودي، دمشق: دار القلم، بيروت: الدار الشامية، ط٤، ٢٠٠٩م، ص٣٨١.

ومما يلفت النظر أن أطول قَسَم في القرآن الكريم يتعلق بتزكية النفس: ﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴿٤﴾ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴿٥﴾ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ ﴾ [الشمس: ١-١٠]. نلاحظ أنَّ الله سبحانه يُقسم بمخلوقاته المتعددة: من الأشياء والأحداث والظواهر، ومن المؤكد أنَّه سبحانه يقسم بنفسه على شيء عظيم، يتضمَّنُه جواب القسم. وجواب القسم في هذا السياق هو: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾. وهكذا يفلح ويفوز وينجح في بغيته مَن تَحقَّق بالتزكية: وهي البعد عما يُغضِب اللهَ سبحانه من الآثام، والإكثار مما يُرضِي الله سبحانه من الأعمال الصالحة، وبذلك ترتفع قيمة النفس. وفي المقابل يخسر ويخيب مَنْ تَحقَّق بالتَدْسِيَة: وهي الحالة التي يتّصف صاحبها بالخصائص التي تحول بينه وبين فعل الصالحات، وحرمانها من الترقي والزيادة في الخير، والسمو بالنفس.

والنفس الإنسانية التي يتحقق لها الفلاح بالتزكية، وتُلْقَى في مهاوي الخيبة والخسران بالتدسية، هي الذات الإنسانية جسماً وعقلاً وروحاً، وهي الفرد الإنساني والجماعة الإنسانية. وللنفس الإنسانية مال تمتلكه بتفويض من مالكه الأصلي، وهو الله سبحانه، ولها بيئة مكَّن الله للإنسان فيها واستخلفه عليها، ليسخِّر أشياءها وأحداثها وظواهرها في الإعمار، والبناء الحضاري. لكن محور التزكية في كل ذلك هو الوجدان الإنساني الذي يكون موضوعاً للترقية والتربية والتنمية. وهذا الوجدان وجدانان: وجدان نزوعي ووجدان إدراكي. والوجدان النزوعي له دوافع غريزية وحاجات مادية، ويرتبط بما يصفه القرآن بالنفس الأمارة بالسوء؛ النفس التي تنتهي إلى أنَّ الإنسان خلق هلوعاً. أما الوجدان الإدراكي فتمثله دوافع الفطرة البشرية في تلمس الحاجات الروحية، ويتحرك الإنسان معها من البعد المادي إلى الروحي، فتتكون لديه نفس لوامة، لا تزال تترقى في درجات التزكية، لتصبح النفسَ المطمئنة، التي تستحق خطاب الله سبحانه لها: ﴿ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾ ﴾ [الفجر: ٢٨ - ٣٠].

وقد ارتبطت التزكية بالفلاح في آيات متعددة في القرآن الكريم، سواءً كان ذلك فلاح الفرد أو فلاح الجماعة، وقد ورد الفلاح نتيجة للتزكية بصورة مباشرة: فقد أفلح من زكّي نفسه ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ ﴾ [الشمس: ٩]، وأفلح من تزكّى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ ﴾ [الأعلى: ١٤].

وقد ورد الفلاح نتيجة لفعل محدد من أفعال التزكية، وعلى وجه الخصوص بذل المال: زكاةً وصدقةً وتطهيراً للنفس من الشُّحِّ: ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟ وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ﴾ [التغابن: ١٥- ١٧]. ويكون الفلاح نتيجة لفعل التزكية بالمال واحداً عندما يكون واحداً من أفعال أخرى، كما في مطلع سورة "المؤمنون": ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [المؤمنون: ١ – ٤]، وكما في سورة "لقمان": ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ ﴾ [لقمان: ٤-٥].

والله سبحانه ينهى عن أن يقوم الناس بتزكية أنفسهم، يظنون أنهم بذلك يصلون إلى حالة التقوى، فالله أعلم بالناس قبل أن يصبحوا بشراً، وقبل أن يخرجوا من بطون أمهاتهم، وأعلم بما تؤول إليه أمورهم بعد ذلك، وهو أعلم بمن يصل إلى التقوى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾ [النجم: ٣٢] وحينما يصل الذين آمنوا إلى حالة التقوى بما تتضمنه من التوجه إلى الله والجهاد في سبيله، فهناك يضمنون الفلاح: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [المائدة: ٣٥].

وإذا كانت التزكية وسيلة للفلاح فإنَّ ثمة وسائل للوصول إلى حالة التزكية ومن ثم الفلاح، ومن ذلك الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن

المنكر، وهي صفات الجماعة المفلحة، القائمة على أمر الإصلاح في المجتمع: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران: ١٠٤] وهي كذلك صفات الأمة المصلحة التي تبتغي الوصول إلى الفلاح، وبغير الترقي من حالة الصلاح إلى صفة الإصلاح، فإن البديل عن الفلاح هو ما يقابله الهلاك في الدنيا، قبل العذاب في الآخرة: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [هود: ١١٧].

فكل صور الصلاح والدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف، وإقامة العدل، والإسهام في تنمية المجتمع والأمة، والجهاد في سبيل الله أمورٌ إيجابية، إذا حببت إلى النفس، زكَّتْها ورقَّتْها وطهَّرَتْها، وارتفعت بها إلى التقوى والفلاح. وفي المقابل فإن كل صور الفساد، وفعل المنكر أو إشاعته، والبخل بالنفس، والشح بالمال، وقطع الأرحام، وارتكاب الظلم، والتقاعس على إتقان العمل والقيام بالواجب، وتضييع الحقوق، وإهمال الواجبات، كل ذلك أمور سلبية، إذا أدركتْ النفسُ قبحَها، والتزمت بتجنُّبها، كان ذلك مدعاة لتزكية النفس وترقيتها وتطهيرها.

ويرد لفظ التزكية في القرآن الكريم بمعنى التطهير والترقية للمشاعر النفسية وللعلاقات الاجتماعية. فعندما يحدث الطلاق بين الزوجين، فإنَّ النفوس ربما تكون مهيأة للبغضاء والشحناء وتقطع أواصر الحب والمودة، مما قد يدفع أهل الزوجة إلى عَضْلِها؛ أي منعها من العودة إلى زوجها، مع رغبة كل منهما في هذه العودة، فيخبرهم الله سبحانه أنَّ في هذه العودة خيراً لهم جميعاً، وأنّ هذه العودة أطهر لقلوبهم من الريبة والشك، ولدوام الود والمحبة. فالمسألة إذن، مشاعر وخواطر نفسية تُزكِّي القلوب وتحدد العلاقات والأنظمة القائمة في المجتمع وتعالج القضايا الاجتماعية.

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٣٢].

فأزكى لكم إذن تعني: "أوفر للعِرض وأقرب للخير، فأزكى دال على النماء والوفر، وذلك أنهم كانوا يعضلوهن حَمِيَّة وحفاظاً على المروءة من لحاق ما فيه شائبة الحطيطة، فأعلمهم الله أنَّ عدم العضل أوفر للعرض، لأنَّ فيه سعياً إلى استبقاء الود بين العائلات التي تقاربت بالصهر والنسب، فإذا كان العضل إباية للضيم، فالإذن لهن بالمراجعة حلم وعفو، ورفاء للحال..."(١)

وألفاظ ﴿ أَزْكَىٰ لَكُمْ ﴾ و﴿ أَزْكَىٰ لَهُمْ ﴾ تتكرر في سياق ما قد يحيك في النفس نتيجة بعض الممارسات، فالاعتذار عن استقبال الضيوف في المنزل احتراماً للخصوصيات، وغضٌّ البصر، وحفظ الفرج صيانةً للأعراض، يرافقهما تطهير الضمير والشعور وتطهير العمل والسلوك؛ تطهير لحياة الفرد وسريرته وواقعه، ترتفع به وبتصوراته إلى الملأ الأعلى فيكون مستشعراً مراقبة الملأ الأعلى لخلجات قلبه وسلوك جوارحه: ﴿ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُواْ فَٱرْجِعُواْۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ [النور: ٢٨]، ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [النور: ٣٠].

٢ - حين تكون التزكية هي فعل الله سبحانه

فهو الفاعل لذلك في الحقيقة نحو: ﴿ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ [النساء: ٤٩]. وفعل الله سبحانه يرد في القرآن الكريم كذلك اجتباءً واصطفاءً من الله تعالى لبعض البشر: ﴿ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةًۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ ﴾ [مريم: ١٣]، ﴿ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴾ [مريم: ١٩]؛ أي: مزكى بالخِلْقة، فيكون صالحاً عالماً طاهر الخُلُق بتوفيق إلهي، كما يكون لجُلِّ الأنبياء والرسل، لا بالتعلم والممارسة.

والإنسان المؤمن وهو يوثق صلته بالله سبحانه، فإنَّه مهما وصل إليه من حالة الإيمان، وقام به من العمل الصالح، واتخذه من الأسباب المشروعة في سبيل الترقي في درجات التزكية، فإنه يعلم مع ذلك كله أنه لا يدرك ما يدركه إلا بفضل

---

(١) ابن عاشور، محمد الطاهر. **التحرير والتنوير**. تونس: دار سحنون للنشر والتوزيع، ١٩٩٧م، ج٢، ص٤٢٨.

الله عليه، ورحمته به. فالنبي ﷺ مأمور أن يقول: ﴿ قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴾ [الأحقاف: ٩].

٣ - حين تكون التزكية واحدة من مهام الرسول

جاءت **التزكية في القرآن** الكريم بوصفها واحدة من أربع مهام للرسول ﷺ؛ فالرسول يزكِّي أمَّته، ويتلو عليها الآيات، ويعلمها الكتاب، ويعلّمها الحكمة. وهي أربع مهمات اقترنت مع بعضها وتكررت أربع مرات في القرآن الكريم، كما سيأتي. وكما تكون تزكية الرسول لأمته بهذا المنهاج التربوي الرباعي الأركان، تكون تزكيته لأمته كذلك بتطبيق الأحكام والشرائع، فتطبيق الرسول لحكم الزكاة في الأمة وسيلة لتطهير الأمة وتزكيتها: ﴿ خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٠٣]. أما الآيات القرآنية الأربعة التي يرد فيها لفظ التزكية بوصفه مهمة من مهام الرسول، فهي تختص بالرسول محمد عليه الصلاة والسلام، وهي:

- ﴿ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٢٨ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٨-١٢٩]
- ﴿ كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٥١]
- ﴿ لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴾[آل عمران: ١٦٤]
- ﴿ هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴾ [الجمعة: ٢]

في الآية الأولى دعاء إبراهيم عليه السلام إلى ربه سبحانه: أن يجعل من ذريته ﴿ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ ﴾ وأن يبعث في هذه الأمة ﴿ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ ﴾ يقوم بأربع مهمات: يتلو عليهم آيات الله، ويعلمهم الكتاب، ويعلمهم الحكمة، ويزكيهم.

وفي الآيات الثلاث الأخرى بيان مَنِّ اللهِ وتفضُّلِه بالاستجابة لدعاء نبي الله إبراهيم بمجيء الأمة المسلمة وبعث نبيّها محمداً ﷺ. ونكتفي هنا بتسجيل ملحوظتين؛ الملحوظة الأولى: أن التزكية قد وردت في دعاء إبرهيم عليه السلام في الموقع الرابع من المقاصد، لكن التزكية في الآيات الثلاث الأخرى قد وقعت في الترتيب الثاني بعد تلاوة الآيات. والملحوظة الثانية: أن التزكية كانت في حق الأمة المسلمة التي كانت دعوة نبي الله إبراهيم عليه السلام، وفي الأمة التي يخاطبها الله سبحانه: كما أرسلنا فيكم، وفي أمة المؤمنين، وأمة الأميين.

فلم يكن مقصد التزكية إذن، ولا أيٌّ من المقاصد الثلاثة الأخرى، يتعلق بالفرد، وتربية نفسه، وبناء شخصيته، وترقية وجدانه. ولذلك فإن هذه الآيات الأربع ترسم منهاجاً في تربية الأمة يتكون من أربعة أركان، تتكامل فيما بينها، وتتضافر مكوناتها في بناء الأمة، وفي رسم صورتها وتحديد خصائصها. الركن الأول هو تلاوة الآيات؛ ويتضمن ذلك محو الأمية، والارتفاع إلى مستوى التكريم الإلهي بتلاوة آياته والانتفاع بما فيها. والركن الثاني هو التزكية، وتشمل خصائص الطهر والبركة والتنمية، والركن الثالث هو تعليم الكتاب؛ أي تعليم ما فيه من علم وهدى. أما الركن الرابع فهو تعليم الحكمة؛ أي تعليم مادة الكتاب وثمرة تعليمه، وهي الإصابة في القول والفعل والعمل، واكتساب ملكة البصر بالأمور، ووضعها في نصابها، ووزنها بموازينها، وإدراك أسبابها وغايتها.

٤ - تزكية المال:

ومن تزكية الإنسان لنفسه تزكيتُه لماله، فإنفاق المال في وجوهه تزكيةٌ للمال بما يحصل له من بركة وعائد مضاعف: ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴾ [الروم: ٣٩] وإيتاء الزكاة كذلك تزكية لصاحب المال بتطهير نفسه من الشح. فالمال فتنة، والذي ينفق من ماله زكاةً أو صدقةً، إنما ينفق على نفسه، ويتوقَّى بذلك ما يكون من نتائج الشح والبخل على النفس. وإنفاق المال في وجوهه إسهام مباشر في بناء

علاقات التكافل والتراحم في المجتمع، وهو كذلك تعامل مع الله سبحانه: ﴿ إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾، والله سبحانه ﴿ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴾ يشكر للإنسان هذا الإنفاق، ويكون هذا الشكر بمضاعفة المال بالبركة والتنمية من جهة، والأجر والثواب والمغفرة من جهة أخرى: ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟ وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ﴾ [التغابن: ١٥ - ١٧].

أما لفظ الزكاة بمعنى الفريضة المعروفة في أركان الدين الخمسة، فإنَّ محمد الطاهر بن عاشور يقول: "لا أحسب استعمال الزكاة (زكاة المال) -بمعنى المال المبذول لوجه الله- ورد بهذا المعنى إلا في مصطلحات القرآن الكريم، ولم يرد بهذا المعنى قبل نزول القرآن الكريم."(١)

فالزكاة ركن في الدين، قسيم لشهادة التوحيد، والصلاة، والصيام، والحج. والزكاة ركن فريد في النظام الاجتماعي العام، وظيفته تطهير النفس من الشح والاستعلاء على فتنة المال والقيام بحق الجماعة وأعضائها. والزكاة ركن مهم في النظام الاقتصادي؛ فجباية المال في الإسلام عبادة، وهي سهم معلوم من مال الفرد يرده للمجتمع، وذلك عندما يصبح المال مملوكاً للفرد الذي يملك المال، ويملك حرية التصرف فيه، لأنّه كان نتيجة للسعي والكسب. وهو سهم يرتبط بالإنتاج والعائد الزراعي والصناعي والتجاري. وترتبط الزكاة بالمواعيد والمقادير؛ فالزكاة تجب في المال الذي يزيد على مقدار محدد، في ما بقي موجوداً لدى مالكه بعد الحوْل، أو يدفع في مواعيد محددة، ﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ﴾ [الأنعام: ١٤١]، وما يدفع منه هو نسبة مئوية تكون قيمتها ربع العشر، أو نصف العشر، أو العشر، أوالخمس، بحسب أصناف المال، وطبيعة العمل المبذول في كسبه. وقد تصل إلى نسبة المال الذي يصرف في مصالح المجتمع إلى مائة في المائة في حالة مصادر الطاقة التي لا تجوز فيها الملكية الخاصة.

---

(١) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج ١٨، ص١٢.

والزكاة وسيلة مضمونة للبركة والزيادة ﴿ وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن زَكَوٰةٖ تُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ ﴾ [الروم: ٣٩] فمن أراد التجارة الرابحة التي تتضاعف فيها الأموال، فعليه بالزكاة.

والله سبحانه يَعِدُ الناس أن يكون معهم: ﴿ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمۡۖ لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرۡتُمُوهُمۡ وَأَقۡرَضۡتُمُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا ﴾ [المائدة: ١٢]. وما أعظمها من معية! لكن هذه المعية لا تتحقق إلا بشروط، والزكاة واحد من الشروط. ومعيَّة الله وعدٌ عظيم، تَهْدي الإنسان وتَكْفِيه، ولكنها معيَّةٌ مشروطة، فهي: "...طاعة له في التصرف وفق شرطه... وإقامة لأسس الحياة الاقتصادية على المنهج الذي يكفل ألا يكون المال دولة بين الأغنياء، وألا يكون تكدس المال في أيد قليلة سبباً في الكساد العام، بعجز الكثرة عن الشراء والاستهلاك، مما ينتهي إلى وقف دولاب الإنتاج أو تبطئته، ويفضي إلى الترف في جانب والشظف في جانب، وإلى الفساد والاختلال في المجتمع ... كل هذا الشر تحول دونه الزكاة، ويحول دونه منهج الله في توزيع المال ودورة الاقتصاد..."(١)

والنظام الاقتصادي المعاصر يقوم على الفائدة الربوية، ولا يَتَصوَّر أكثرُ الناس وجود نظام صالح يقوم على غير هذا الأساس، فصارت الزكاة إحساناً فردياً لا ينهض على أساسه نظام عصري، وبهتت صورة الزكاة في الحس المعاصر الذي لم يشهد نظام الإسلام في عالم الواقع.

وللغزالي معنى لطيف في علاقة إيتاء الزكاة بعملية التطهير، فهو يحذِّر مُؤْتي الزكاة أن يَمُنَّ بزكاته على من يأخذُها أو ينتظرُ منه شكراً، لأنَّ حقيقة الأمر في نظر الغزالي أنَّ آخذ الزكاة متفضِّل على معطيها، فهو يقول: "أنْ تَعرف أنّه المحسنُ إليك بقبول حقِّ الله منك، فإنَّ من أسرار الزكاة تطهير القلب،

(١) قطب، سيد. **في ظلال القرآن**. القاهرة: دار الشروق، الطبعة الثامنة ١٩٧٩، مجلد ٢، ج ٦، ص٨٥٧-٨٥٨.

وتزكيته عن رذيلة البخل وخبث الشح، لذلك كانت الزكاة مطهرة؛ إذ بها حصلت الطهارة، فكأنها غسالة نجاسة، لذلك ترفع رسول الله ﷺ وآل بيته عن أخذ الزكاة وقال عليه الصلاة والسلام، "إنها أوساخ أموال الناس"(١) **فإذا أخذ الفقير ما هو طهرة لك، فله الفضل عليك.**"(٢)

٥ - تزكية الإنسان لنفسه بالمدح والثناء

حين تكون تزكية الإنسان لنفسه مدحاً لها وثناءً عليها، أو تكون مدحاً من إنسان لآخر، تدخل التزكية -ها هنا- في مجال الذم والنهي، وهي الحالة الوحيدة التي تكون فيها التزكية فعلاً مذموماً منهياً عنه، يقول سبحانه: ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾ ﴾ [النجم: ٣٢]، ويقول: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ ﴾ [النساء: ٤٩ - ٥٠]

وسياق الآية الأولى هو علم الله سبحانه بالإنسان من قبل أن يولد، وبكسبه في حياته، ومصيره في آخرته، فالله سبحانه وهو العليم بدرجة التقوى التي يكتسبها الإنسان، عن طريق اجتنابه الآثام، والفواحش، واتقائه ما يغضب الله سبحانه، هو الكفيل بحسابه، ومن ثمّ فلا قيمة لمدح الإنسان نفسه وشكرها والمنِّ بأعماله، فهذا المدح والثناء ربما يكون حباً للنفس، وكبراً، وترفعاً، وذلك من صفات الشيطان حين قال ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ [الأعراف: ١٢]. وقد يكون ذلك دعاوى فاسدة لا قيمة لها. وخير للإنسان أن يَكِلَ أمرَهُ إلى الله ويتواضع لجنابه سبحانه.

---

(١) علقَّ عبد الله عرواني "مصحح كتاب الغزالي" على الحديث في الهامش، ما نصّه: روى مسلم في صحيحة "الصدقة أوساخ الناس" وهي تطهير للمال، ولكنها من جانب آخر حق للفقير طيَّبة له.

(٢) الغزالي، أبو حامد. **الأربعين في أصول الدين**. صححه وخرج أحاديثه: عبد الله عبد الحميد عرواني، دمشق: دار القلم، ٢٠٠٣م، ص٥٠.

أما الآية الثانية فقد جاءت في سياق الحديث عن اليهود الذين كانوا يشتركون مع النصارى في صور متعددة من تزكية أنفسهم، بادعاءات باطلة، وقد ذكر الله سبحانه ما قالوا في آيات عديدة منها: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١]، ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [المائدة: ١٨] وهذه التزكية هي افتراءٌ على الله سبحانه، وإثمٌ مبين. ولن تنفعهم تزكيتهم لأنفسهم هذه شيئاً، فالعبرة هي بمن يزكيه الله، لا بمن يزكي نفسه.

ثم إنَّ الأحاديث النبوية قد أضافت معنى الآيات التي تذمُّ تزكيةَ الإنسان لنفسه، ذمَّ تزكيتِه لغيره كذلك.(١) ولعل ذلك من الباب نفسه؛ أي بهدف تجنيب الإنسان ما قد يصيبه من الكبر، والخيلاء، والترفع على الناس. ولعل المقصود هنا هو المبالغة في المدح حتى يصل إلى وصف الإنسان بما ليس فيه، ويكون المادح عندها كاذباً، وبعض النفوس يصيبها العُجْب بما ينالها من مدح، فيكون المدح سبباً في بعد النفس عن حقيقة التزكية. ووجَّه النبي عليه الصلاة والسلام من أراد أن يقول خيراً عن غيره، أن يقول: أحسبه كذلك، ولا أزكي على الله أحداً. عَنْ أَبِي بَكْرَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ عن أبيه قَالَ: " أَثْنَى رجلٌ على رجلٍ عند النبي ﷺ، فقال: وَيْلك، قطعت عنق صاحبك (مراراً) ثم قال: من كان منكم مادحاً أخاه لا محالةَ فليقلْ: أحسب فلاناً، والله حسيبه، ولا أزكِّي على الله أحداً، أحسبه كذ وكذا، إنْ كان يعلمُ ذلك منه."(٢)

---

(١) يقول ابن عاشور: "ويشمل تزكية المرء غيره، فيرجع "أنفسكم" إلى معنى قومكم أو جماعتكم، مثل قوله تعالى "فإذا دخلتم بيوتاً فسلموا على أنفسكم" أي ليسلم بعضكم على بعض." انظر:
- ابن عاشور، محمد الطاهر. **تفسير التحرير والتنوير.** تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤م، ج٢٧، ص١٢٥.

(٢) البخاري، **صحيح البخاري**. مرجع سابق، كتاب الشهادات، باب إذا زكّى رجل أخاه، حديث رقم ٢٦٦٢، ص٦٥٠.

ومنه حديث البخاري: عن خارجة بن زيد بن ثابت أن أم العلاء امرأة من نسائهم بايعت النبي ﷺ أخبرته أن عثمان بن مظعون طار لهم في السكنى حين اقترعت الأنصار على سكنى المهاجرين. قالت أم العلاء: فاشتكى عثمان عندنا فمرَّضْتُه حتى توفي، وجعلناه في أثوابه فدخل علينا النبي ﷺ، فقلت رحمة الله عليك أبا السائب، شهادتي عليك، لقد أكرمك الله. فقال النبي ﷺ: وما يدريك أن الله أكرمه؟ قالت: قلت: لا أدري بأبي أنت وأمي يا رسول الله فمن؟ قال: أما هو فقد جاءه والله اليقين، والله إني لأرجو له الخير، وما أدري والله وأنا رسول الله ما يفعل بي. قالت: فوالله لا أزكِّي أحداً بعده."[(١)]

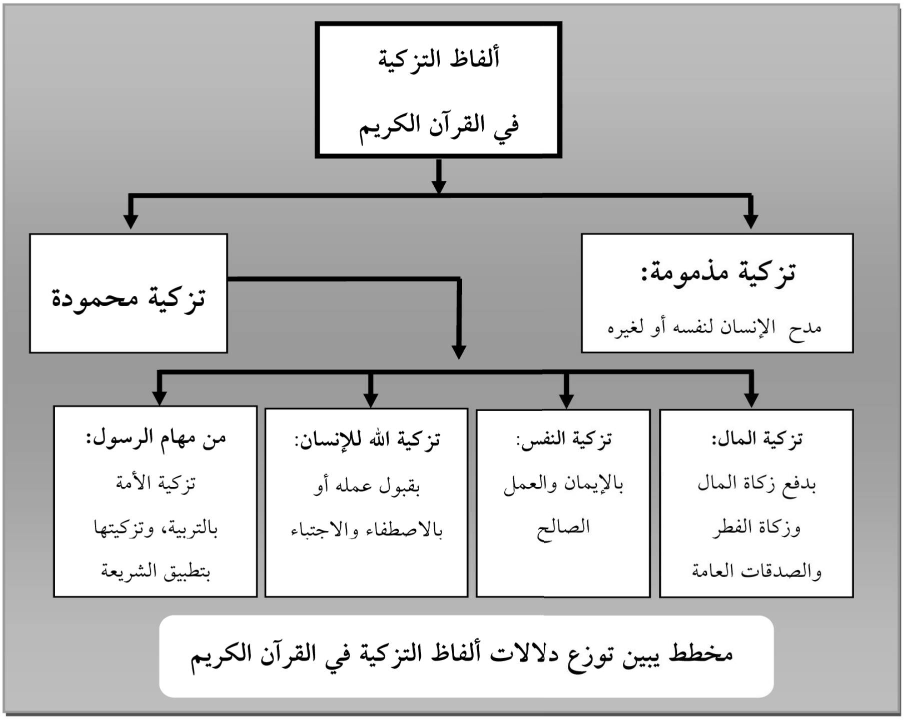
ومع ذلك فإنَّ فقه الآيات الخاصة بالنهي عن تزكية النفس، والأحاديث التي تنهي عن تزكية الآخرين، يتحدد بأحاديث أخرى، ثبت فيها أن النبي ﷺ قَبِل المدح، وأنَّه مدح بعض الصحابة. ولعلّ وجه الجمع بين الأمرين يكون حين يتأكد فيه صدق المادح ويُؤْمَنُ فيه من عدم فتنة الممدوح. وذكر الإمام النووي أنه: "جاء في الإباحة أحاديث كثيرة صحيحة. قال العلماء: وطريق الجمع بين الأحاديث أن يقال: إن كان الممدوح عنده كمالُ إيمانٍ ويقينٌ ورياضة نفسٍ ومعرفةٌ تامة، بحيث لا يفتتن ولا يغترُّ بذلك، ولا تلعب به نفسه فليس بحرام ولاً مكروه، وإن خيف عليه شيء من هذه الأمور كُرِهَ مدحُه في وجهه كراهةً شديدة. وعلى هذا التفصيل تُنَزَّل الأحاديث المختلفة في ذلك.

ومما جاء في الإباحة قوله ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه: "أرجو أن تكون منهم"؛ أي من الذين يدعون من جميع أبواب الجنة لدخولها. وفي الحديث الآخر "لست منهم"؛ أي الذين يسبِلون أُزُرَهم خُيَلاء. وقال رسول الله ﷺ لعمر رضي الله عنه: "ما رآك الشيطان سالكاً فجاً إلا سلك فجاً غيره." والأحاديث في الإباحة كثيرة."[(٢)]

---

(١) المرجع السابق، كتاب مناقب الأنصار، باب مقدم النبي ﷺ وأصحابه المدينة، حديث رقم ٣٩٢٩، ص٩٦٥.

(٢) النووي، يحيى بن شرف الدين. **رياض الصالحين.** القاهرة: دار الريان للتراث، ١٩٨٧م، ص٤٧٩.



مخطط يبين توزع دلالات ألفاظ التزكية في القرآن الكريم

ثانياً: ألفاظ التزكية في الحديث النبوي الشريف

من النظر في المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي التي نشرها المستشرق الهولندي أرندجان فنسنك، وحققها محمد فؤاد عبد الباقي، نلاحظ أن الألفاظ التي تتعلق بالتزكية وما اشتق من لفظ زكى، تقع في الدلالات نفسها التي وردت في القرآن الكريم. والدلالة الوحيدة التي لم ترد في القرآن الكريم مباشرة، وردت في الحديث النبوي هي تزكية الإنسان لغيره، وربما كانت واقعة ضمن قوله سبحانه: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢] فيكون النهي حينئذ عن تزكية الفرد لنفسه أو لغيره، ويكون حديث النبي ﷺ، هو تفصيل مجمل الآية. وفيما يأتي أمثلة على عدد من دلالات التزكية في الحديث النبوي الشريف:

١- وردت أحاديث تتعلق **بتزكية النفس،** في صورة دعاء إلى الله سبحانه أن يحققها للفرد. "عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ قَالَ لَا أَقُولُ لَكُمْ إِلَّا كَمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ

يَقُولُ كَانَ يَقُولُ اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَالْجُبْنِ وَالْبُخْلِ، وَالْهَرَمِ وَعَذَابِ الْقَبْرِ. اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا **وَزَكِّهَا** أَنْتَ خَيْرُ مَنْ **زَكَّاهَا** أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ وَمِنْ دَعْوَةٍ لَا يُسْتَجَابُ لَهَا."(١)

وفي حرمان الإنسان من تزكية الله سبحانه، جاء في صحيح البخاري: "عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ثَلَاثَةٌ لَا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ؛ رَجُلٌ كَانَ لَهُ فَضْلُ مَاءٍ بِالطَّرِيقِ فَمَنَعَهُ مِنْ ابْنِ السَّبِيلِ وَرَجُلٌ بَايَعَ إِمَامًا لَا يُبَايِعُهُ إِلَّا لِدُنْيَا، فَإِنْ أَعْطَاهُ مِنْهَا رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطِهِ مِنْهَا سَخِطَ، وَرَجُلٌ أَقَامَ سِلْعَتَهُ بَعْدَ الْعَصْرِ فَقَالَ وَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ لَقَدْ أُعْطِيتُ بِهَا كَذَا وَكَذَا فَصَدَّقَهُ رَجُلٌ ثُمَّ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا ﴾."(٢)

وفي النهي عن تزكية الإنسان لغيره، جاء في صحيح البخاري: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ سَلَامٍ، أَخْبَرَنَا عَبْدُ الْوَهَّابِ، حَدَّثَنَا خَالِدٌ الْحَذَّاءُ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: أَثْنَى رَجُلٌ عَلَى رَجُلٍ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: وَيْلَكَ قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ، قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ، مِرَارًا. ثُمَّ قَالَ: مَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَادِحًا أَخَاهُ لَا مَحَالَةَ، فَلْيَقُلْ: أَحْسِبُ فُلَانًا وَاللَّهُ حَسِيبُهُ، وَلَا أُزَكِّي عَلَى اللَّهِ أَحَدًا، أَحْسِبُهُ كَذَا وَكَذَا، إِنْ كَانَ يَعْلَمُ ذَلِكَ مِنْهُ.(٣)

٢- **وفي النهي عن تزكية الإنسان لنفسه جاء في صحيح مسلم:** عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَمْرِو بْنِ عَطَاءٍ قَالَ سَمَّيْتُ ابْنَتِي بَرَّةَ فَقَالَتْ لِي زَيْنَبُ بِنْتُ أَبِي سَلَمَةَ:

---

(١) النيسابوري، مسلم بن الحجاج القشيري. **صحيح مسلم**، الرياض: بيت الأفكار الدولية، ١٩٩٨م، كتاب الذكر والدعاء، باب التعوذ من شر ما، ح٢٧٢٢، ص١٠٩٠.

(٢) البخاري، محمد بن اسماعيل. **الجامع الصحيح**. بيروت: دار طوق النجاة، ط١، ١٤٢٢هـ،كتاب المساقاة، باب إثم من مع ابن السبيل من الماء، ج٣، حديث رقم ٢٣٥٨، ص١٠٩.

(٣) البخاري. **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب الشهادات، باب إذا زكى رجلا رجلا كفاه، ج٣، حديث رقم ٢٦٦٢، ص١٧٦.

إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَهَى عَنْ هَذَا الِاسْمِ، وَسُمِّيتُ بَرَّةَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **لَا تُزَكُّوا** أَنْفُسَكُمْ، اللَّهُ أَعْلَمُ بِأَهْلِ الْبِرِّ مِنْكُمْ، فَقَالُوا: بِمَ نُسَمِّيهَا؟ قَالَ: سَمُّوهَا زَيْنَبَ."(1)

٣- **وفي الترغيب في صلاة الجماعة وأنها أزكي؛ أي أكثر بركة وثواباً عند الله من صلاة الفرد، وكلما كان الجماعة أكبر كانت التزكية أكبر**: "عن أبي بن كعب قال: صلَّى رسولُ الله ﷺ الفجرَ، فلما صلى قال شاهد فلان، فسكت القوم، قالوا: نعم، ولم يحضر، فقال رسول الله ﷺ: إنَّ أثقل الصلاة على المنافقين صلاة العشاء والفجر، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبوا، وإن الصف الأول على مثل صف الملائكة، ولو تعلمون فضيلته لابتدرتموه، إنَّ صلاتك مع رجلين **أزكى** من صلاتك مع رجل، وصلاتك مع رجل **أزكى** من صلاتك وحدك، وما كثر فهو أحب إلى الله تعالى."(2)

٤- **وفي صحيح الإمام البخاري عن زكاة المال أحاديث كثيرة بوَّبها البخاري تحت عناوين كثيرة بلفظ الزكاة**، منها: باب وجوب الزكاة، البيعة على أداء الزكاة، إثم مانع الزكاة، ما أودت زكاته فليس بكنز، مثال ذلك: "حَدَّثَنَا ابْنُ نُمَيْرٍ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي، حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ، عَنْ قَيْسٍ، قَالَ: قَالَ جَرِيرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ: بَايَعْتُ النَّبِيَّ ﷺ عَلَى إِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالنُّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ."(3)

---

(1) النيسابوري، مسلم بن الحجاج. **صحيح مسلم.** مرجع سابق، كتاب الآداب، باب استحباب تغيير الاسم القبيح إلى حسن وتغيير اسم برة إلى زينب وجويرية ونحوهما، حديث رقم ٢١٤٢، ص٨٨٥.

(2) ابن حنبل، أحمد. **مسند الإمام أحمد بن حنبل**. تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وعادل مرشد وسعيد اللحام، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١، ١٩٩٩م، مسند الأنصار، حديث أبي المنذر أبي بن كعب، حديث ابي بصير العبدي وابنه عبد الله بن ابي بصير عن ابي بن كعب، ج٣٥، حديث رقم ٢١٢٦٦، ص١٩١.

(3) البخاري. **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كتاب الزكاة، باب البيعة على إيتاء الزكاة، ج١، حديث رقم ١٤٠١، ص١٠٦.

٥- كما جاءت **زكاة المال بلفظ الصدقة** في أحاديث كثيرة أخرى في صحيح البخاري، بوبَّها البخاري في عناوين مثل: زكاة الغنم، زكاة الورق، زكاة البقر، الزكاة على الأقارب، من أحبَّ تعجيل الصدقة من يومها، صدقة السر، صدقة العلانية. ومنها على سبيل المثال: "حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ يُوسُفَ، أَخْبَرَنَا مَالِكٌ، عَنْ عَمْرِو بْنِ يَحْيَى الْمَازِنِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَيْسَ فِيمَا دُونَ خَمْسِ ذَوْدٍ صَدَقَةٌ مِنْ الْإِبِلِ، وَلَيْسَ فِيمَا دُونَ خَمْسِ أَوَاقٍ صَدَقَةٌ، وَلَيْسَ فِيمَا دُونَ خَمْسَةِ أَوْسُقٍ صَدَقَةٌ."(١)

٦- **وتكون التزكية للأعمال:** "قال معاذ بن جبل سمعت رسول الله ﷺ يقول: ستهاجرون إلى الشام، فيُفتحُ لكم، ويكون فيكم داء كالدمل، أو كالحرة، يأخذ بمراق الرجل، يستشهد الله به أنفسهم، **ويزكى** بها أعمالهم، اللهم إن كنت تعلم أنَّ معاذ بن جبل سمعه من رسول الله ﷺ فاعطه هو وأهل بيته الحظ الأوفر منه..."(٢)

ثالثاً: التزكية في مدارس الزهد والتصوف والجهاد

بعد وفاة النبي ﷺ، ظهر ميل عند بعض الصحابة لاختيار الزهد نمطاً معيناً من السلوك الاجتماعي في العلاقة مع الناس، وهو نمط تطوَّر فيما بعد ذلك إلى شيء من العزلة، عندما تزايدت مظاهر الاحتفال بالدنيا لدى بعض الفئات، وتواترت الفتن السياسية، وانتهى الأمر إلى تحوُّل الزهد والعزلة إلى ما عرف بالتصوف، الذي توزعت تمثلاته في مدارس متعددة. فمضمون التصوف أساساً هو الزهد في متاع الدنيا، والإكثار من أعمال التقرب إلى الله سبحانه، ولا شك في أنَّ ذلك من صور التزكية، والتدين الإسلامي بصورة عامة.

---

(١) المرجع السابق، كتاب الزكاة، باب زكاة الورق، ج١، حديث رقم ١٤٤٧، ص١١٦.

(٢) ابن حنبل، الإمام أحمد. **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، مرجع سابق، مسند الأنصار، حديث معاذ بن جبل، ج٣٦، حديث رقم ٢٢٠٨٨، ص٤٠٨.

لكن التصوف ليس ظاهرة مقصورة على التدين في المجتمع الإسلامي، فقد ظهر في تاريخ الأديان والفلسفات الأخرى، عدد من الشخصيات التي اختارت مذهباً في السلوك النفسي والاجتماعي، عرف بالتصوف الفلسفي أو العرفان، ودخلت فيه نظريات غريبة عن التصورات الدينية الإسلامية، مثل الإشراق والفيض ووحدة الوجود وغيرها، وهي في مجملها نظريات تُخْضِعُ المشاعرَ والمواجد النفسية للمعايير العقلية، أو تُحيلها إلى أوهام الرؤى والأحلام في المنامات. وقد تأثر بعض علماء التصوف الإسلامي بهذه النظريات، فاضطر علماءُ التزكية المسلمون إلى أن يتحدثوا عن تصوف سني منشود، يقابل التصوف الفلسفي المرفوض.

وقد بدا مذهب التصوف بصورة تبدو متمايزة عن مذاهب الفقهاء والأصوليين الذين يجتهدون في استنباط الأحكام الفقهية، أو مذاهب علماء العقيدة والكلام والفلسفة، الذين انشغلوا بالدفاع عن المعتقدات، ودفع الشبهات، وغير ذلك من مذاهب أهل العلم. وقد أنتج علماء التصوف ألواناً من الأدب ازدحم بمصطلحات خاصة، مثلهم في ذلك مثل الفقهاء والأصوليين والمتكلمين وغيرهم؛ فلكل فئة من هؤلاء مصطلحاتها.

وجاءت كثير من مصطلحات التصوف في ثلاثيات، تتمايز عناصر كل ثلاثة بدلالات خاصة، وإن كانت تتكامل فيما بينها ويؤدي كل منها إلى ما بعده، أو ينبثق اللاحق منها عن السابق. ومن هذه الثلاثيات: ثلاثية التخلي والتحلي والتجلي، وثلاثية الشريعة والطريقة والحقيقة. ومع أن بعض مسالك التصوف شذَّت في فهمها أو سلوكها عن مبدأ التكامل بين عناصر الثلاثية، فجعلت من التجلي في الثلاثية الأولى، أو الحقيقة في الثلاثية الثانية الأصل الذي يقوم بذاته، فإذا تحقق لم يكن لما قبله من قيمة، فإن التحقيق العلمي لدى أكثر علماء التزكية والتصوف هو أن هذه المستويات متكاملة وتتحقق بصورة تصاعدية متراتبة.

ومما يميز ممارسات التزكية تفضيل ثواب الدار الآخرة، على متاع الحياة الدنيا، والتقرب إلى الله سبحانه بالنوافل من العبادات زيادة على الفرائض. وأصل ذلك ظاهر في القرآن الكريم الذي يلح في دعوة الإنسان إلى ابتغاء وجه الله في كل شأن، ليكون قيامه بأي عمل استجابة لأمر الله سبحانه، وطمعاً فيما عند الله من أجر في الآخرة، فلا مجال للمقارنة بين قيمة الدنيا وقيمة الآخرة، إلا بمقدار ما تكون الدنيا وسيلة إلى الآخرة: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ [الضحى: ٤] ومع ذلك فإن للإنسان في الدنيا نصيب من الاستمتاع، لكنَّه مدعوٌّ لأن يعطيَ الدارَ الآخرة أولويةَ الاهتمام: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧]. ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ [غافر: ٣٩].

والزهد في الدنيا، لا يكون عند الإنسان المؤمن هروباً من حمل الأمانة، وعجزاً عن القيام بمسؤولياته في ابتغاء فضل الله من الكسب الحلال، ومن الإسهام في الإنتاج، وتلبية متطلبات الواقع السياسي والاجتماعي، ولا يكون رهبانية تحرم على النفس ما أحل الله، فلم يكتب الله الرهبانية على أحد في رسالته إلى البشر، وإنما كانت في بعض الأحيان ابتداع الناس من عند أنفسهم، حتى لو أرادوا بها الخير: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ٢٧].

وإن كنا بحاجة إلى صورة عملية للتزكية التي تضع الأمور في نصابها، فدوننا رسول الله ﷺ، فهو أحق أن يتبع في خشيته لله وتقواه، ومع ذلك فقد رفض مقالة رهط تقالُّوا عبادة رسول الله، وظنّوا أنَّ عليهم أن يأتوا من العبادات بأكثر مما يأتي به النبي ﷺ، فقد غُفر له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر، فعزم أحدهم

على أن يصوم ولا يفطر، وعزم الثاني على أن يقوم الليل فلا يرقد، وعزم الثالث أن لا يتزوج النساء. فكان جواب النبي ﷺ قوله: "أما والله إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي."(١)

لكن الأمر أخذ بعد ذلك صوراً من التجمع في فئات محددة يقوم أفرادها بالالتزام بتعليمات قيادة محددة، وأنماط من السلوك المحدد، في مجالات العبادة والذكر، وفي مجال العلاقات بين أفراد الجماعة، وانتهي إلى استخدام مفردات ومصطلحات خاصة، قد يكون لها في الظاهر العام دلالات معينة، ولكن لها دلالات أخرى في الباطن الخاص بالجماعة أو بشيخ الجماعة. ومثال ذلك ما عرف في بعض نظم التصوف بالمنظومة الثلاثية: (التخلي، والتحلي، والتجلي). فإذا كان التخلِّي يعني ضرورة الإقلاع عن الآثام، وكان التحلِّي ضرورة الأخذ بالصفات الفاضلة، فإن ممارسة التخلي والتحلي إلى مستوى معين يمكن أن يدخل فيه "المريد السالك" حالةً من الشفافية الروحية، والرفعة الوجدانية، يسمونها التجَّلي، حين يستشعر السالك فيها تجلّي الحضرة الإلهية عليه.

لكن بعض ممارسات التصوف شهدت ألواناً من السلوك البدعي والألفاظ البدعية، وبقيت بعض ممارساته ضمن دائرة المألوف من الزهد والترقِّي في مراتب التزكية. وعَرَفت بعض جماعات التصوف ألواناً من الجهاد ضد أعداء الدين، وعملت على نشر الدين في كثير من البقاع في إفريقيا وآسيا.

ومن الممكن أن نتخيل أنَّ التزكية ألوان من الجهاد؛ جهاد للنفس: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وجهاد بالنفس: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ

---

(١) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح، حديث رقم ٥٠٦٣، ص١٢٩٢.

﴿ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمُۢ ﴾ [الأنفال: ٧٤ – ٧٥]، وجهاد بالمال لتطهير النفس من الشح بالمال، سواءً كان ذلك للإسهام في توفير متطلبات الدفاع عن الأمة، والمستضعفين في الأرض: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ [التوبة: ٢٠] أو كان ذلك بإيتاء الزكاة المفروضة على المال لتحقيق التكافل الاجتماعي، وإغناء المحتاجين عن ذُلِّ المسألة. إنّ تخلِّي الإنسان عن جزء محدد من المال عن طيب نفس، ابتغاء وجه الله، لا سداداً لدين أو رداً لجميل أو مكافأة على خدمة أو منفعة تلقَّاها، هو تطهير للنفس وتزكية لها. ﴿ ٱلَّذِي يُؤْتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [الليل: ١٨ – ٢٠]. والإنسان حريص على حياته أن تطول، فيحيد عن كل ما يظن أنه سبب في الموت: ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ [ق: ١٩] وحريص على المال، يحبه حباً كثيراً، يجمعه ويثمِّره، ﴿ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ [الفجر: ٢٠]، ولذلك فإنَّ استعداد الإنسان للتضحية بنفسه، في أداء الواجب، وشوقاً إلى لقاء الله سبحانه، ومقاومة الحرص على الحياة، هو جهاد بالنفس. وإنَّ استعداده للتخلِّي عن ماله أو جزء من ماله، أداءً لحق الله في المال، وإسهاماً في بناء المجتمع القوي المتكافل المتراحم، ومقاومة الحرص على المال، هو جهاد بالمال.

رابعاً: تزكية النفس الإنسانية

النفس الإنسانية جسم وعقل وروح، وإذا كنا نستطيع أن نتحدث عن الجسم بقدر من الوضوح والثقة، فليس لدينا القدر نفسه من الثقة في الحديث عن الروح والعقل، فالروح من أمر الله. ربما تتمثل في وجود الحياة في الإنسان كما نعرفها في الحياة الدنيا، بوظائفها وتمثلاتها، التي تنتهي بانتهاء الحياة عندما تفارق الروح الجسد، وتكون روحاً مؤمنة طيبة، أو روحاً عاصية خبيثة. أما العقل فهو القدرة على التعقل؛ أي الوعي والإدراك، وربما يكون للدماغ شأن في هذه العلمية، لكن النص القرآني يجعل القلب هو الجهة التي يتم فيها فعل التعقل،

فالقلوب التي في الصدور هي موضع التعقل: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦].

لكن الكيان الإنساني كيان واحد، فأي عمل يقوم به الإنسان يمر في سلسلة من الخطوات التي يشترك فيها العقل والقلب والجسم. فكل عمل يبدأ فكرة، ترد إلى موضع التعقل من خارجه، أو يتذكرها العقل مما هو مخزون لديه من خبرات سابقة، فيقرر أن الفكرة صحيحة، وأن من المفيد الإتيان بها، ويطمئن القلب إلى سلامة هذا التوجه، فالقلب كذلك هو موضع الاطمئنان: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨]، وعندها يندفع جسم الإنسان للفعل والسلوك، وجسم الإنسان مكونات متعددة، منها العين والأذن واللسان، ومنها اليد والقدم، إلخ. فعندئذٍ تلتفت العين، وتصغي الأذن، وينطق اللسان، وتتحرك اليد، وتسعى القدم. والمسؤولية عن الفعل مشتركة بين كل هذه المكونات: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦].

كلُّ مكوِّن من مكوِّنات الذات الإنسانية، وكلُّ جزء من أجزاء الجسم الإنساني يتحمل جزءاً من المسؤولية؛ المسؤولية عن صواب الفكرة، وحسن النية، وصحة الفعل، فيجازي بذلك ثواباً وإحساناً، والمسؤولية عن الخطأ وسوء النيّة، فيجازى بذلك عقاباً وخسراناً.

١ - تزكية الجسم

تزكية الجسم هي تزكية كل مكون من مكوناته، فمن تزكية اليد أن تتحرك بالعطاء والصدقة، وتصافح بشوق ومحبة، وتمسح على رأس الصغير برحمة، وتكتب ما هو حق وخير، وتعين المحتاج إلى العون فتعينه. ومن تزكية القدم أن تسعى إلى مثل ذلك من أبواب الخير. ومن تزكية العين أن تتأمل في ملكوت الله ومظاهر عظمته، فترى الأشكال والألوان والأحجام، وتتفحص تمثلات التناسق

والتوازن والجمال في مخلوقات الله، فتمجده وتنحني لعظمته، وفي الوقت نفسه لا تكتفي العين بذلك، وإنما تواصل النظر، فتدقق في التفاصيل، وترصد المقادير، وتقود بذلك إلى تحديد الخصائص والسمات، ووضع المقاربات وصياغة النظريات، وإبداع التطبيقات، إلخ. ومن تزكية البطن أن يُملأ بالطعام الحلال؛ الحلال في مادته، وفي مصدره، وفي كميته. ومن تزكية اللسان أن يكون نطقه ذكراً، وصمته فكراً، فلا يقول إلا الحق والصدق، ولا ينطق بالغيبة والنميمة، وإشاعة الفاحشة، وقالة السوء: "مَنْ كان يُؤْمِنُ بالله واليوم الآخر، فليَقُلْ خيراً أو لِيَصْمُت."(1)

ومن التدسية، أن تقوم كل جارحة من جوارح الإنسان بما يقابل ذلك من أبواب الحرام، والأذى، والعبث. فتقع العين في الزنا، وزناها النظر، ويقع اللسان بالزنا، وزناه النطق، ويصدِّقُ الفرج ذلك بالفعل الحرام، أو يكذِّبُه.(2)

ومن تزكية الجسم، أن يحيط الإنسان نفسه بالبيئة الصالحة من أهل التقوى والإيمان والأعمال الصالحة، التي تزكي أصحابها وتنمِّي غيرها، فلا تسمع في هذه البيئة إلا الخير، فيستعين الإنسان بها على الاستقامة. ويتجنب الاختلاط والألفة برفاق السوء والبيئات الفاسدة والمفسدة، التي تزيِّن للناس المعاصي، وتنشر الأذى، وتكرس الفتنة.

---

(1) البخاري. **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كتاب الرقاق، باب حفظ اللسان، حديث رقم ٦٤٧٥، ص١٦١١. والحديث متفق عليه، وورد عند البخاري في مواقع متعددة بألفاظ متقاربة وهذا واحد منها: "حَدَّثنا عبد العزيز بنُ عبد الله حدَّثنا إبراهيم بن سعدٍ عن ابن شهاب عن أبي سلمةَ "عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ، مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فلا يُؤْذِ جارَه، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ."

(2) النيسابوري، مسلم بن الحجاج. **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب القدر، باب كتب على ابن آدم حظه من الزنا، عن ابن عباس: قال: ما رأيت شيئاً أشبه باللمم ما قال أبو هريرة: أن النبي ﷺ قال: "إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة، فزنا العينين النظر، وزنا اللسان النطق، والنفس تمنى وتشتهي، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه" حديث رقم ٢٦٥٧، ص١٠٦٦.

ومن تزكية الجسم القيام بالطاعات، وأوّلها إقامة الصلاة؛ أي تأديتها على وجهها، باستكمال متطلبات الوقوف والركوع والسجود والجلوس والاطمئنان في كل حالة، وتصور الحضور بين يدي الله في كل حركة وسكنة. ومن التزكية الحج والعمرة إلى بيت الله الحرام، وأداء المناسك من طواف وسعي ورمي وانتقال من مكان إلى آخر اقتداءً برسول الله ﷺ، "خذوا عني مناسككم." وإذا كان إتقان الواجبات العملية التي يؤديها جسم الإنسان وجوارحه هي الصورة الظاهرة للعمل الصالح، التي تتكفل أحكام الفقه في ضبطها، فإن استقامة النية، وتوجّه القلب من الصور الباطنة للعمل، وهي ما يهتم به علماء التزكية، لا ليكون بديلاً عن إتقان العمل وفق أحكام الفقه، وإنما ليكون متمماً ومكملاً.

٢ - تزكية العقل

تزكية العقل من تزكية النفس، والعقل في القرآن ليس آلةً، أو شيئاً، أو جزءاً مادياً، مثل العين أو الأذن، وإنما هو صفة تميّز الإنسان عن غيره من الكائنات الحية، والأشياء غير الحية، وهو مناط التكليف البشري والمسؤولية، وذلك بإجماع أهل الملة.[1] وظيفته تعقُّل العلوم والمعارف والوعي بها وإدراكها، أو هو العلوم والمعارف نفسُها.

ومن الآيات التي تتحدث عن العقل بوصفه وظيفة: قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤] فهذه الآيات الكونية معروضة للتعقل؛ أي للنظر، والتفكر، والتدبر، والفهم. وتكون نتيجة ذلك اكتساب الهدى، ومن ثم حسن العاقبة والثواب في الآخرة. أما الذين لا يتدبرون ولا يقومون بفعل التعقُّل، بسلوك أسباب الهدى واتِّباع ما أنزل الله،

---

(١) الإيجي، عضد الدين عبد الرحمن بن أحمد. **المواقف في علم الكلام**. القاهرة: مكتبة المتنبي، (د. ت.)، ص١٤٦.

ويتبعون -بدلاً من ذلك- ما وجدوا عليه آباءهم حتى لو كانوا لا يعقلون، فلن يكتسبوا الهداية، وينتهوا إلى سوء العاقبة والعذاب في الآخرة: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٠].

وثمة آيات قرآنية تجعل العقلَ هو المعلوم المطلوب تعقله، وليس عملية التعقل نفسها، ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٣] فالأمثال هي العلم الذي يُطلب عقلُه وتعقُّله.

ومن رحمة الله بالإنسان أن جعل أسباب الهداية "آيات" كثيرة، معروضة للتعقل والتدبر، وربط النتيجة المطلوبة وهي "الهداية" ربطاً مباشراً بفعل "التفكر" بالآيات، وبفعل "التعقل" لها، وهي آيات مسطورة وآيات منظورة. قال سبحانه: ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ [السجدة: ١ - ٣] وقال: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ [البقرة: ١٧٠] فالآيات التي هي مناط الهداية هنا هي آيات مسطورة تتلى في الكتاب. وقال سبحانه: ﴿ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأنبياء: ٣١ - ٣٢] فالآيات التي مظنة الهداية هنا هي آيات كونية منظورة. وقال سبحانه: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٣] والآيات هنا آيات نفسية واجتماعية.

وربطت الآيات القرآنية في كثير من المواقع بين الآيات الهادية من جهة، وعمليتي التفكر والتعقل مجتمعتين، من جهة أخرى، قال سبحانه: ﴿ وَهُوَ

ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الرعد: ٣ - ٤]، وقال سبحانه: ﴿ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [النحل: ١١ - ١٢] وقال سبحانه: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٦٦ - ٦٩].

وربطت الآيات القرآنية في موقع واحد أهمية الآيات الهادية من جهة وعمليات التفكر، والتعقل، والعلم، وقيام جوارح الإنسان -لا سيما السمع والبصر- بوظائفها، كما جمعت في الموقع نفسه الآيات النفسية والاجتماعية والكونية، يقول سبحانه: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الروم: ٢١ - ٢٤].

إنَّ الاستطراد في الاستشهاد بهذه الأمثلة من الآيات القرآنية الكريمة -وثمة آيات كثيرة غيرها- تؤكد أنَّ الله سبحانه يريد للعقل الإنساني أن يتزكّي بالنظر

والتدبُّر والتفكُّر، وأنَّه لا بد لذلك من القيام بالوظائف التي خلقت لها أدوات التعقُّل من سمع وبصر وغيرها. وتؤكد أنَّ السير في الأرض، والنظر في مشاهد الكون، والاعتبار بأحداث التاريخ، سوف يزود الإنسان بكثير من العلم الطبيعي والاجتماعي والنفسي، عن عالم الشهادة الذي يعيش فيه الإنسان في هذه الدنيا، ومع ذلك، فإنَّ تلك الآيات هي تنبيه وتذكير وحثٌّ يستهدف إنقاذ الإنسان من حياة الغفلة والعبث، ونزوات الأهواء والشهوات، واتباع ما أَلِفَه الناس واعتادوا عليه، وما خلَّفه الآباء والأجداد من صور التيه والضلال.

أما العلم والمعرفة عن عالَم الغيب، فقد تكفل الله بتعليم الإنسان ما يلزمه عن هذا العالم، مؤكداً له أنَّه لن يجد إلى العلم به، وعنه، سبيلاً من البحث والتفكير، غير ما يوحي به الله إليه، وأنَّ أيَّ جهد يبذله بحثاً عن مصدر آخر غير الوحي، هو جهد عابث ضائع، أولى له أن يصرفه فيما يفيده. ومثل ذلك يقال كذلك عن مسائل الشريعة وتفصيلات أحكامها، ومقاصدها من صلاة وصيام وحج، وأحكام الحلال والحرام في العلاقات الاجتماعية والاقتصادية، فالتسليم بأنَّ الله لا يريد للإنسان منها إلا ما هو خير ومصلحة، وحياة طيبة راشدة، هو منتهى العلم والمعرفة، ومن ثم فإنَّ العمل بهذا العلم هو الهدى والتزكية والرشاد، أما كثرة الجدل والمراء، وإثارة الشكوك والاعتراضات، واللجوء إلى أساليب الرفض والإنكار، فتلك هي سبل الضلال التي لن تأتي لصاحبها بخير، لا في الدنيا ولا في الآخرة.

إن السلوك البشري في جميع جوانبه يعتمد أساساً على ما يحصله الإنسان من العلوم والمعارف، وبقدر ما يكتسب الإنسان من تزكية في ما يحصِّله من العلوم، تكون تزكية سلوكه في حياته، هدايةً واستقامةً ورشداً، في خاصة نفسه، وفي علاقاته بربه سبحانه، وفي علاقاته بالآخرين، من أولي القربي، ومن إخوانه في الدين، وإخوانه في الإنسانية أجمعين.

وفي ختام الحديث عن تزكية العقل، يكفي أن نذكر أنَّ العلوم والمعارف التي تشكل ثقافة الإنسان المسلم، لا بد أن تتصف بالشمول والتوازن والتكامل، فثمة قدرٌ من العلوم العامة لا بد منه لكل فرد لتزكية حياته وآخرته، وثمة قدرٌ من العلوم المتخصصة لا بد منه لتزكية أهل المهن والحرف للوصول إلى الإتقان والإحسان في أدائها، وثمة قدر من العلوم لا بد منه للخاصة الذين يزكُّون دور الأمة لتسهم في منافسة الأمم الأخرى في الإبداع والاختراع والتمكين في الأرض. وفي كل مستوى من مستويات العلوم هذه، جوانبُ نظرية وأخرى تطبيقية، تتكامل فيها جوانب الإيمان والعلم والعمل؛ وتتكامل فيها مصادر العلم من وحي إلهي، وخبرة بشرية عن عوالم الأشياء والأحداث والظواهر، تستهدي بالماضي، وتحيط بالحاضر، وتستشرف المستقبل، وتتكامل فيها مكونات النفس الإنسانية: روحاً وعقلاً وجسداً.

٣ - تزكية القلب

درج الناس على أن يحيلوا إلى العقل الإنساني إدراك الحقائق وفهم الوقائع، وبناءً على ذلك يقبلها ويؤمن بها، فيقر المؤمن -مثلاً- أن شرع الله حق، ويتخلّى عما يمكن أن تزينه له نفسه من أهواء. ومع أن الإيمان بهذه الحقائق هنا هو ما وقر في القلب، فإنّ الناس قد درجوا على أن يحيلوا إلى القلب، أموراً غير التي يحيلونها إلى العقل، فإذا كان العقل موضع العلم، والمعرفة، والفكر، أو ما يضادُّ ذلك من جهل، وغباء، وجدل، وإنكار، فالقلب موضع النية، والإيمان، والعواطف، والمشاعر، وما يضاد ذلك كذلك، من كفر، وزيغ، ومرض، وهوى. ودرج الناس كذلك على أن الموضع الأساسي لتزكية النفس هو القلب، فالتزكية تختص بأعمال القلوب أكثر مما تختص بأي شيء آخر.

وقد سبق أن أشرنا إلى أنَّ القرآن الكريم يصرِّح بصورة واضحة أنَّ عملية التعقل -بمعنى الوعي والإدراك والفهم- تتم في القلب: ﴿ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِى ٱلۡأَرۡضِ

﴿ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ ﴾ [الحج: ٤٦]. ومع ذلك فإنَّ القرآن الكريم يميِّز بصورة واضحة -كذلك- بين الظاهر، الذي يبدو للناظر والملاحظ في صورة عمل الجوارح وأجزاء الجسم البشري، فهو من الأمور المحسوسة، والباطن الذي يمكن للإنسان أن يخفيه في نفسه: ﴿وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ ﴾ [البقرة: ٢٨٤]. وما يخفيه الإنسان يخفيه في صدره: ﴿ قُلۡ إِن تُخۡفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمۡ أَوۡ تُبۡدُوهُ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٢٩] والصدر هو مستودع القلب: ﴿ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦].

وإذا كان ما يبدو في الظاهر هو من الأمور الحسية، فإن ما يقابله في الباطن هو من الأمور المعنوية، فباطن الإنسان ليس الأجزاء المادية غير الظاهرة من الجسم، مثل الرئتين والمعدة والأمعاء وحتى مضخة الدم التي توجد في الجانب الأيسر، من الصدر المسماة بالقلب، فالباطن هنا هو ما يخفيه القلب الذي في الصدر من أعمال يقوم بها الإنسان، مثل عقد النية والعزم، وفعل الإرادة، وعرض الخاطر، وانفعال النفس بمشاعر الحب والكره، فضلاً عن تعقل الأفكار وفهمها وتدبُّرها، وأشواق الروح وتواصلها مع خالقها، ومع غيرها من الأرواح.(١)

فالقلب بهذا المعنى شمل الروح والعقل وما يعبران عنه من أعمال الباطن، وشمل النفس في واحد من دلالاتها القرآنية: ﴿وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ ﴾ [البقرة: ٢٨٤]. وليس من المستغرب أن تتحدث أدبيات التصوف والتربية والوجدانية عن تزكية النفس وتزكية القلب تعبيراً عن جميع الجوانب المعنوية من الفعل البشري.

ولا نود في هذا المقام أن نستعرض معجم ألفاظ القلب في القرآن الكريم، فهي كثيرة جداً، يكفي أن نشير إلى أنَّ القلب، في المصطلح القرآني،

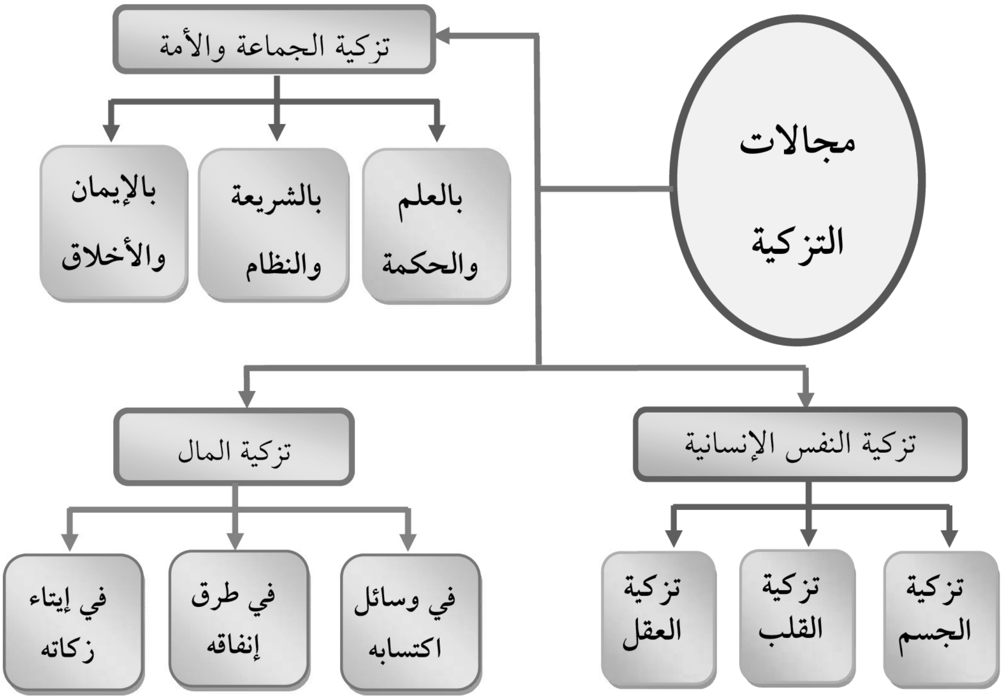
---

(١) إشارة إلى الحديث الصحيح الذي روته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: "قالت: سمعت النبي ﷺ يقول: الأَرْواحُ جنودٌ مجنَّدةٌ ما تعارَفَ منها ائْتَلَفَ وما تنَاكَرَ منها اخْتَلَف." انظر:
- البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كتاب أحاديث الأنبياء، باب الأرواح جنود مجندة، حديث رقم ٣٣٣٦، ص٨٢٠.

يتقلب في ما يستقر فيه من الخير والشر، ويتحول من حال إلى آخر في الأمور الخطيرة الشأن، مثل الكفر والإيمان، وفي الخواطر العابرة من فعل العزم على فعل الشيء أو تركه. وقد وردت الآيات القرآنية تتحدث عن أعمال يكتسبها القلب ويحاسب عليها: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٥]، وأهمها ما تنعقد عليه إرادة الإنسان وتعمَّدَهُ قلبه: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب:٥] وما يلجأ إليه من توبة وخشية وإنابة: ﴿مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾[ق: ٣٢]. ووردت الآيات القرآنية تتحدث عن صفات يكتسبها القلب من لين ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣] ورأفة ورحمة ﴿وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ [الحديد: ٢٧] أو غلظة: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، أو قسوة: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم﴾ [الزمر: ٢٢]، أو اشمئزاز ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ﴾ [الزمر: ٤٥].

والقلب محل الاطمئنان والسكينة: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح: ٤]. ومحل الألفة والحب ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ [الأنفال: ٦٣].

والآيات كثيرة عن أصناف من الناس يتصفون بمرض القلوب: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ﴾ [محمد: ٢٩] وهؤلاء هم المنافقون: ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ الذين: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح: ١١]، أو: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ﴾ [المائدة: ٤١].



خامساً: وسائل التزكية

أشرنا فيما سبق إلى الآيات القرآنية التي تتحدث عن تزكية النفس، وتزكية المشاعر، وتزكية المال، وتزكية الفرد وتزكية الأمة، وتأكد لدينا أن الإنسان مدعو إلى تزكية نفسه حتى يتحقق له الفلاح ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤]، ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩]. ومع ذلك فإنَّ الله سبحانه قد قرر أنَّ التزكية فضلٌ من الله ورحمة، يتفضَّل الله به على من يشاء ممن سلكوا سبيل الرحمن، وتجنبوا خطوات الشيطان، وطلبوا فضل الله ورحمته بإخلاص: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾. [النور: ٢١]

فكيف يمكن تزكية النفس؟ وما الوسائل التي يمكن استعمالها في التزكية؟

يستخدم علماء التزكية والتصوف مصطلحات خاصة للتعبير عن وسائل

التزكية، منها: التخلية والتحلية، وهما لفظتان من المصطلحات الصوفية، تمثلان إطاراً عاماً لوسائل التزكية، فالتزكية بمعنى التطهير والتنقية،[1] تعني التخلي عن سائر الصفات المذمومة التي قبَّحها الله ونهى عنها، وهذه الصفات كثيرة، لعلّ أهمها الرياء، والعجب، والكبر، والاغترار، والحسد. وقد أخذ الحديثُ عن هذه الصفات من كتاب "الرعاية لحقوق الله" للحارث المحاسبي أكثر من نصف الكتاب (٣٨٦ صفحة من مجموع ٦٣٠ صفحة).[2] والتخلية لا تعني ترك الإنسان خالياً فارغاً، وإنما تعني إعداده ليمتلئ بما يحلو من الصفات الممدوحة، التي زيَّنها الله له وأمره بها، وهي كذلك صفات كثيرة، أهمها القيام بالفرائض والنوافل، وتعهد القرآن الكريم بالقراءة والتدبر والتفكر، والتحلي بالتقوى، وكثرة ذكر الله سبحانه؛ أي حضوره سبحانه في قلب الإنسان، فلا يغفل عنه، ومحاسبة النفس، وذكر الموت، وغير ذلك. ونعرض فيما يأتي عدداً من الوسائل العامة التي يجمع كل منها الكثير أبواب التخلية والتخلية والتجلية، وتضم في ممارساتها كثيراً من الوسائل الفرعية.

١ - القرآن الكريم

لا حديث أجمل عن القرآن من حديث القرآن عن نفسه: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ٢]؛ وهو ﴿ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [هود: ١]، وما جاء فيه هو: ﴿ ٱلۡحَقُّ وَمَوۡعِظَةٞ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [هود: ١٢٠]؛ وهو يهدي للتي هي أقوم: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَبِيرٗا ﴾ [الإسراء: ٩]. وإذا كان أهل الكتب السابقة قد حرَّفوا وبدَّلوا، وأخفوا كثيراً مما شرعته هذه الكتب من أحكام، فهذا الكتاب هو الذي يكشف

---

(١) المصطلح عن أبي حامد الغزالي: هو التزكية والتحلية، والتزكية عنده هي ما يسميه غيره بالتخلية، حين يتحدث عن: "أخلاق مذمومة تجب التزكية عنها، وأخلاق ممدوحة تجب التحلية بها" انظر:
- الغزالي، **الأربعين في أصول الدين**، مرجع سابق، ص١٣.

(٢) المحاسبي، أبو عبد الله الحارث بن أسد. **الرعاية لحقوق الله.** تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، القاهرة: دار الكتب الحديثة، ط٣، ١٩٧٠م.

ذلك، ويقدم البديل النهائي الذي لن يطاله التغيير ولا التبديل، وفيه من النور والبيان والهداية، ما لا حاجة معه إلى غيره من الكتب السابقة: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [المائدة: ١٥ – ١٦].

ولذلك ليس ثمة تزكية لا تبدأ بالقرآن وتنتهي إليه. وليس ثمة تزكية لا تبدأ بالنفس الإنسانية وتنتهي بها، لذلك أصبحت تزكية النفس هي المظلة العامة لكل أشكال التزكية. وللنفس في المصطلح القرآني ذِكْرٌ وافرٌ يشتمل على تفصيلات عن طبيعة النفس جسماً وعقلاً وروحاً، وحالات النفس: المطمئنة، واللوامة، والأمَّارة بالسوء، وأسرار النفس، وأمراض النفس، إلخ، مما يجد القارئ تفصيلاته في المراجع المتخصصة في هذه الموضوعات. ويكفي أن نقول إن في تلاوة القرآن الكريم وتدبره، والاهتداء بهديه أساساً لكل أنواع التزكية؛ ففيه من تزكية اللغة: تقويم ألفاظ اللسان، وترقية أساليب البيان؛ وفيه من تزكية القلب: ما تطمئن به القلوب، وفيه من تزكية المال: تطهير النفس من الشح، وتحقيق البركة في المال، ومضاعفته. فمن أراد التزكية فعليه بالحياة في ظلال القرآن، ورحم الله من عاش في ظلال القرآن، وسجل لنا بعض الخواطر والانطباعات عن الحياة في ظلال القرآن وبيَّن أنها نعمة ترفع العمر وتباركه وتزكيه:

"الحياة في ظلال القرآن نعمة، نعمة لا يعرفها إلا من ذاقها. نعمة ترفع العمر وتباركه وتزكيه. والحمد لله.. لقد منَّ علي بالحياة في ظلال القرآن فترة من الزمان، ذقت فيها من نعمته ما لم أذق قط في حياتي. ذقت فيها هذه النعمة التي ترفع العمر وتباركه وتزكيه."

"لقد عشت أسمع الله -سبحانه- يتحدث إليَّ بهذا القرآن.. أنا العبد القليل الصغير.. أيُّ تكريم للإنسان هذا التكريم العلوي الجليل؟ أيُّ رفعة للعمر يرفعها

هذا التنزيل؟ أيُّ مقام كريم يتفضل به على الإنسان خالقه الكريم؟ [...] وعشت -في ظلال القرآن- أحسُّ التناسق الجميل بين حركة الإنسان كما يريدها الله، وحركة هذا الكون الذي أبدعه الله..."

"وعشت -في ظلال القرآن- أرى الوجود أكبر بكثير من ظاهره المشهود.. أكبر في حقيقته، وأكبر في تعدد جوانبه.. إنه عالم الغيب والشهادة لا عالم الشهادة وحده. وإنه الدنيا والآخرة، لا هذه الدنيا وحدها [...] على أن المرحلة التي يقطعها على ظهر هذا الكوكب إنما هي رحلة في كون حي مأنوس، وعالم صديق ودود. كون ذي روح تتلقى وتستجيب، وتتجه إلى الخالق الواحد الذي تتجه إليه روح المؤمن في خشوع[...] أي راحة، وأي سعة وأي أنس، وأي ثقة يفيضها على القلب هذا التصور الشامل الكامل الفسيح الصحيح؟[...] وعشت -في ظلال القرآن- أرى الإنسان أكرم بكثير من كل تقدير عرفته البشرية من قبل للإنسان ومن بعد.. إنه إنسان بنفخة من روح الله[...] وهو بهذه النفخة مستخلف في الأرض[...] ومسخر له كل ما في الأرض[...] ولأن الإنسان بهذا القدر من الكرامة والسمو جعل الله الآصرة التي يتجمع عليها البشر هي الآصرة المستمدة من النفخة الإلهية الكريمة. جعلها آصرة العقيدة في الله..."

"ومن ثم عشت -في ظلال القرآن- هادئ النفس، مطمئن السريرة، قرير الضمير.. عشت أرى يد الله في كل حادث وفي كل أمر. عشت في كنف الله وفي رعايته. عشت أستشعر إيجابية صفاته تعالى وفاعليتها [...] الإنسان هو هذا الكائن بعينه. بفطرته وميوله واستعداداته. يأخذ المنهج الإلهي بيده ليرتفع به إلى أقصى درجات الكمال المقدر له بحسب تكوينه ووظيفته، ويحترم ذاته وفطرته ومقوماته، وهو يقوده في طريق الكمال الصاعد إلى الله[...] والحق في منهج الله أصيل في بناء هذا الوجود. ليس فلتة عابرة، ولا مصادفة غبر مقصودة.. إن الله سبحانه هو الحق. ومن وجوده تعالى يستمد كل موجود وجوده[...] والخير والصلاح والإحسان أصيلة كالحق، باقية بقاءه في الأرض..."

"أي طمأنينة ينشئها هذا التصور؟ وأي سكينة يفيضها على القلب؟ وأي ثقة في الحق والخير والصلاح؟ وأي قوة واستعلاء على الواقع الصغير يسكبها في الضمير؟ ..." (١)

٢ - الذكر والفكر

نقصد بالذكر هنا: ذكر الله سبحانه في أسمائه وصفاته، والتفكر والتدبر في آياته. وآياته سبحانه نوعان: ما يتلوه في القرآن بالكلمات، وما يشاهده في الكون من مخلوقات. والأساس في ذكر الله هو حضور الله سبحانه في قلب الإنسان المؤمن في خاطرة تمر بالفكر والقلب، وفي كل عمل تقوم به الجوارح، وقد قُرن الذكر بالتزكية في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤-١٥]. وبهذا الذكر وهذا الحضور يترقى الإنسان في مراتب التزكية حتى يصل إلى مرتبة الإحسان: "أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فهو يراك."(٢) قال النووي في شرح الحديث: "لو قدرنا أن أحدنا قام في عبادة وهو يعاين ربه سبحانه وتعالى، لم يترك شيئاً مما يقدر عليه من الخضوع، والخشوع، وحسن السمت، واجتماعه بظاهره وباطنه على الاعتناء بتتميمها على أحسن وجوهها،إلا أتى به ... وقد ندب أهل الحقائق إلى مجالسة الصالحين، ليكون ذلك مانعاً من تلبسه بشيء من النقائص، احتراماً لهم واستحياءً منهم، فكيف بمن لا يزال الله تعالى مطلعاً عليه في سرِّه وعلانيته؟!"(٣)

وفي كثير من المواقع الذي ورد فيه الذكر في القرآن ورد معه طلب كثرة الذكر: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾، [آل عمران: ٤١] ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ

---

(١) قطب، سيد. **في ظلال القرآن**. القاهرة: دار الشروق، ج١، ص ١٠-١٨ (مقدمة المؤلف).

(٢) الإمام مسلم. **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب الإيمان باب بيان الإسلام والإيمان والإحسان، حديث رقم ٨ ص٣٦.

(٣) النووي، أبو زكريا يحي بن شرف. **شرح النووي على مسلم**. دمشق: دار الخير، ١٩٩٦م، ج١، ص١٣٢.

﴿كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤١]، إلخ. وهذا يؤكد أنَّ الذكر لا يقتصر على كلمات التسبيح والتحميد والتهليل في مواعيد وحالات ومواقف محددة، وإنَّما هو الحضور الدائم في العقل والقلب، فلا يعتريه غياب قطّ، ومراقبة المشاعر في كلِّ ما يخطر لها، ومحاسبة النفس في ما تأتي وتدع. يقول ابن قيم الجوزية: "محاسبة النفس حتى تعرف ما لها وما عليها، ولا يدعها تسترسل في الحقوق استرسالا، فيضيِّعها ويهملها. وكذلك فإنَّ زكاتها وطهارتها موقوف على محاسبتها، فلا تزكو ولا تطهر ولا تصلح البتَّةَ إلا بمحاسبتها. قال الحسن رضي الله عنه: إنَّ المؤمن والله لا تراه إلا قائما على نفسه: ما أردت بكلمة كذا؟ ما أردت بأكلة؟ ما أردت بمدخل كذا ومخرج كذا؟ ما أردت بهذا؟ ما لي ولهذا؟ والله لا أعود إلى هذا! ونحو هذا من الكلام. فبمحاسبتها يطَّلع على عيوبها ونقائصها فيمكنه السعي في إصلاحها."[1]

وإذا كان عِلْمُ الله تعالى قد أحاط بكل شيء ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: ١٢]، وأنَّ الله سبحانه مع الإنسان حيثما كان: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤]، وأنَّه سبحانه يُسَجِّل كلَّ أعمال الإنسان في كتاب: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٩]، فمن الطبيعي أن يتحرَّى الإنسان التقوى في كل حالاته؛ حياءً من الله، وشكراً على أفضاله ونعمه، وطاعة لأمره، وحذَراً من معصيته، وحبَّاً له وطلباً لِحُبِّه. هذا هو الإحسان: "أنْ تعبد اللهَ كأنَّك تَرَاه"، وإذا تحققت للإنسان هذه المنزلة، فقد استحق محبة الله سبحانه: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٨].

والأمر ليس صعباً، ولا تكليفاً بما لا يطاق، وإنما هو تحقيق معنى العبودية لله سبحانه، "أنْ تعبد اللهَ، كأنَّك تَرَاه". والعبادة هي إدارة الإنسان لشؤون حياته

(١) ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر. **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**. بيروت: دار الكتاب اللبناني، ط٢، ١٩٧٣، ج٢، ص٥١٠-٥١١.

كلِّها على الوجه المشروع الذي يُرضي الله سبحانه، فما يقوم به من عبادات مفروضة من صلاة وصيام وحج، وما يمارسه مأكل ومشرب وملبس، وما يمارسه من متع مباحة، وما يؤديه من أعمال المهن والصنائع، وما يقوم به من علاقات مع الناس، كلُّ ذلك يصبح عبادة ما ابتغى به الإنسانُ وَجْهَ الله سبحانه وعقدَ النيةَ فيه على الاستعانة به على طاعته، وأتى به على وجهه المشروع. وقد يتطلب ذلك في بداية الأمر جهاداً للنفس وتذليلاً لها، ثم يصبح هذا السلوكُ عادةً محبَّبَةً، وسجِيَّةً مُيَسَّرَة، ومِتْعَةً مُقَدَّرة، لا تَصَنُّعَ فيها ولا تكلُّف، ولا معاناة معها ولا ألم.

وقد لاحظنا الربط بين الفلاح والتزكية والذكر والصلاة في قوله سبحانه: ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴾ [الأعلى: ١٤ - ١٥]. فأفضل حالات الذكر هي الصلاة المفروضة، فهي صلة مباشرة بالله سبحانه، دون وسيط. وقد شرعت الصلاة لتخلية الإنسان وردعه عن الفحشاء والمنكر، ﴿ ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ ﴾ [العنكبوت: ٤٥] ولإقامة ذكر الله سبحانه بوصفه المقصود الأعظم والأكبر، فالذكر يرافق كل أفعال الصلاة وحركاتها، فقراءة القرآن بعد تكبيرة الإحرام ذكر، والتسبيح عند الركوع والسجود ذكر، والتحميد والتمجيد عند القيام من الركوع ذكر، والتحيات لله في الجلوس ذكر. أما إذا أضاف المؤمن إلى إقامة الصلاة المفروضة صلاة الليل نافلة وتهجدا بقراءة القرآن في هذه الصلاة، فهو المقام المحمود الذي يصل إليه العبد وهو يترقى في مراتب التزكية: ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴾ [الإسراء: ٧٨ - ٧٩]. ولعل هذا المقام المحمود يوضحه قوله ﷺ في الحديث القدسي: عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: "إن الله تعالى قال: من عادى لي وليّاً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي

يبصر فيه، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه."[1]

فحب الله للعبد الذي يتقرب إلى ربه بالنوافل مقام محمود يبعثه الله فيه يوم القيامة، فأي تزكية أكبر وأعظم، وأي وسيلة أقرب إلى ذكر الله والتقرب إليه أكبر وأعظم؟! أما في الدنيا، فغاية ما يسعى إليه المؤمنون، هو استقرار قلوبهم، وسكينتها، واطمئنانها إلى رضا الله سبحانه، والوسيلة التي تتحقق بها هذه الغاية فتصل إلى ذلك المقام هي ذكر الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الرعد: ٢٨].

٣ - صحبة الصالحين

من أساليب التزكية أن يتحرى الإنسان الاختلاط بالصالحين، والقرب من الأتقياء، فيستعين بصحبتهم على الطاعة، ويعيش معهم حياة الجد في العلم والعمل، والتواصي على الثبات على الحق، والصبر على البلاء، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلا يسمع منهم إلا خيراً، لأنّ ألسنتهم قد تطهرت من اللغو والكذب والغيبة، فلا يقولون إلا حقاً وصدقاً، ومع ذلك فأعمالهم أفصح من أقوالهم. رؤيتهم تذكّر بالله سبحانه، وقربهم يبعد عن المعصية، فهم قدوة فيما يعملون، وناصحون فيما يقولون، والناشئة أكثر شبهاً بمن حولهم من الناس قولاً وفعلاً.

لقد كانت الصفة الأولى لخير أمة أخرجت للناس، قبل صفة الإيمان، أنها تتناصح فيما بينها فتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر: ﴿ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠]. وبصفة الإيمان يكون المؤمنون والمؤمنات في حالة من الولاية؛ بعضهم أولياء بعض: تناصراً وتناصحاً وتعاوناً، عن طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،

---

(١) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كتاب الرقاق، باب التواضع، حديث رقم ٦٥٠٢، ص١٦١٧.

ويجتمع أمرهم على القيام بالصلاة والزكاة والطاعة لله ورسوله، وبذلك تتحقق لجماعتهم رحمة الله سبحانه: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ﴾ [التوبة: ٧١]. ومع أنَّ الأمة الإسلامية هي في مجموعها أمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإنَّ الله جل شأنه فرض على الأمة أن تفرز من بين أفرادها "جماعة" متخصصة تتولى وظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

إنّ انتماء المؤمن إلى أمة الإيمان، تصديقاً ويقيناً في العقل والقلب، وعملاً في الممارسة والسلوك، يتعزز بالحياة مع المؤمنين، والولاء لهم، والاحتماء بهم، من عوامل الانحراف المتمثلة في أهواء النفس، ووساوس الفاسدين من شياطين الإنس والجن، ودعاة الشر، فالجماعة رحمة والفرقة عذاب، وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية. وكلما انتشرت الفتن وشاعت الانحرافات، احتاج المؤمن إلى الجماعة التي تمثل سبيل المؤمنين، ينتمي إليها، ويعطيها من نفسه الولاء، فيتقوى بها، ويقويها. فمن خرج من ولاية المؤمنين المهتدين، ودخل في ولاية الضالين المشاقّين لله ورسوله، فمصيره جهنم وساءت مصيراً: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء: ١١٥]. ومع أن الله سبحانه وصّى الإنسان بوالديه وأمره بشكرهما وبرهما وطاعتهما، فإن أمر الطاعة يتوقف عند حد المعصية والشرك، فعندها يبقى لهما عليه حق الصحبة بالمعروف، ويكون سبيل من أناب إلى الله هو السبيل الواجب الاتباع: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [لقمان: ١٤ – ١٥].

فليبحث المؤمن في زمن الفتن عمن يكون من الناس مفاتيح الخير ومغاليق الشر، يعيش في أكنافهم، ففيهم ومعهم تتوفر الصحبة الحسنة، والبيئة الصالحة، التي تنمو فيها الفضائل، وتتزكى النفوس. وليس مع الجليس الصالح إلا النفع والخير والبركة، وليس مع الجليس السوء إلا الشر والضرر. يقول رسول الله ﷺ: "مثل الجليس الصالح والجليس السوء كمثل صاحب المسك وكير الحداد، لا يعدمك من صاحب المسك إما تشتريه أو تجد ريحه، وكير الحداد يحرق بدنك أو ثوبك أو تجد منه ريحاً خبيثة."(١)

فصحبة الصالحين وسيلة فعالة من وسائل التزكية، فبها تتحصن النفوس في مواجهة الفتن المحدقة والمفاسد الشائعة، وتزكو القلوب وتتطهر، وبها تتقوى الهمم وتزول الهموم، ومعها يكون للمؤمن زيادة في علمه، وصواباً في عمله، وزكاة في خلقه، وذكراً كثيراً لربه. فإذا نسي يجد من يذكره، وإذا ذكر يجد من يعينه.

وكما أن في صحبة الصالحين نجاة من الفتن والمهالك، فإن في صحبة الفاسدين ضلالاً عن سبيل المؤمنين في الدنيا، وندماً وحسرة يوم القيامة: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴾ [الفرقان: ٢٧ - ٢٩]. فخلة هؤلاء الفاسدين ومحبتهم والأنس بهم في الدنيا، سوف تنقلب كرهاً وبغضاً وعداوة: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٦٧].

وخير الصحبة في الدنيا هي صحبة المسجد، وخير الجماعة صلاة الجماعة في المسجد، وكلما كانت الجماعة أكبر عدداً كانت أزكى قدراً. ذلك أن "صلاة الرجل مع الرجل أزكى من صلاته وحده، وصلاته مع الرجلين أزكى من صلاته

(١) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كتاب البيوع، باب العطار وبيع المسلك، حديث رقم ٢١٠١، ص٥٠٦.

مع الرجل، وما كثر فهو أحب إلى الله."[1] ففي المسجد: صلاة الجماعة، وفيه حلقات التعليم والتعلم، وفيه دعاء المؤمن لنفسه ولغيره من المؤمنين، وفيه تصافح المؤمنين وتناثر خطاياهم، فعَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ اليَمَانِ رَضِيَ الله عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا لَقِيَ الْمُؤْمِنَ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ وَأَخَذَ بِيَدِهِ فَصَافَحَهُ تَنَاثَرَتْ خَطَايَاهُمَا كَمَا يَتَنَاثَرُ وَرَقُ الشَّجَرِ."[2]

لكن صحبة المسجد لا تقف عند ذلك، بل تتعداها إلى جميع صور التزاور والتحاب والتعاون والتكافل، في داخل المسجد، وخارجه في المجتمع المحلي.

القرآن الكريم + الذكر والفكر + صحبة الصالحين+ ... +... إلخ

بعض وسائل تزكية النفس

خاتمة

وهكذا فإنَّ المرجعية القرآنية في الحديث عن التزكية قد أشبَعَتْ بيانَها، وأظهَرَتْ قيمتَها، وحددَّت مجالاتِها ووسائلَها؛ فالتزكية في القرآن تكون للفرد: لمشاعر نفسه، وخلجات قلبه، وسلوك جوارحه. والتزكية تكون للجماعة والأمة؛ فالنبي المبعوث للأمة يزكيها، يزكي علاقات الناس، وأنظمة الحياة. وتكون التزكية للمال، فزكاة المال تطهير، وبركة، وتنمية، لمال الفرد ومال المجتمع. وقد أفلح من الناس من تزكّى، حين يتفضل الله عليه بالتزكية، ومن حرم من تزكية الله له، فإن تزكيته لنفسه، وتزكية الناس له لا تنفعه فتيلاً، وقد تضره كثيراً.

(١) العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر. **فتح الباري شرح صحيح البخاري**. القاهرة: دار الريان للتراث، ١٩٨٦م، ج١، ص١٥٩. قال ابن حجر العسقلاني: حديث رواه أحمد وأصحاب السنن وصححه ابن خزيمة وغيره من حديث أبي بن كعب مرفوعاً.

(٢) الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب. **معجم الطبراني الأوسط**. تحقيق: طارق بن عوض الله وعبد المحسن الحسيني، القاهرة: دار الحرمين، ١٤١٥هـ، ج١، حديث رقم ٢٤٥، ص٨٤.

وقد كان حديثنا عن التزكية بوصفها واحدة في منظومة القيم العليا، التي تختص بالإنسان، الذي اختاره الله سبحانه خليفة في الأرض، ليقيم فيها العمران. لذلك بيَّن الله سبحانه له كيف يترقى في مراتب التزكية في جسمه وعقله وقلبه، وفي سلوكه وتصرفاته، وفي ماله وممتلكاته، وفي أنظمته وعلاقاته، وقرر أن فلاحه في الدنيا وفي الآخرة مرهون بما يكتسبه من التزكية. ولذلك فإن قيام العمران في الأرض على الوجه الذي أراده الله، لا يتحقق دون هذه التزكية في سائر مجالاتها. فجميع صور التقدم والتطوير العلمي والتقاني والعمراني، والتوسع في أبواب الإنتاج والاستهلاك لمنتجات الصناعة والتجارة والزراعة، والرقي في التنظيم الإداري لا قيمة لها إذا لم تنعكس على خصائص الإنسان تزكية وتطهيراً، لتحقيق مقاصد الخالق من بناء المجتمع البشري على التعارف والتآلف والتكامل، ومن استقرار القناعة والرضا والسكينة والطمأنية في قلوب البشر.

وإذا اعتمدنا التكامل المعرفي مرجعية للمنهجية الإسلامية في التفكير والبحث والسلوك، فإن ذلك يعيننا في فهم الموقع الذي تحتله قيمة التزكية، والمبادئ المنهجية التي يمكن أن تشتق منها. ومن هذه المبادئ على سبيل المثال لا الحصر: مبدأ تكامل الجسد والعقل والروح، ومبدأ تكامل الوجود الإنساني بين الفرد والمجتمع، ومبدأ تكامل العلم والعمل.

وسيبقى المجتمع البشري مهدداً بالأزمات الخانقة في المجال الاقتصادي والسياسي، والمشكلات المستعصية في المجال الإنساني والاجتماعي، وأمراض القلق والإحباط والشقاء في المجال العقلي والنفسي، حتى يستعيد الإنسان قيمة التزكية في هذه المجالات كلها. وسيتبين له عندها أن التزكية هي جماع الفضائل والأخلاق والشمائل التي يلزم أن يتحلى بها الكائن الإنساني، وأن هذه القيمة العليا هي المصدر الذي تشتق منها سائر القيم الفرعية التي تحكم سلوك الحاكم والمحكوم، والغني والفقير، والعالم والمتعلم، وفيما بين الأفراد، وفيما بين

الجماعات، وعلى الصعيد الداخلي للأمة وعلى صعيد علاقاتها الخارجية بالأمم الأخرى. وسيتبين له عندها أن أي برنامج لإصلاح الواقع، في أي مجال من مجالاته، يعتمد أساساً على الإنسان، والمستوى الذي يصل إليه، في تزكية قلبه وضميره، وتزكية عمله وسلوكه.

اللهم آت نفوسنا تقواها وزكِّها أنت خير من زكَّاها.. آمين.

الفصل الثالث

العُمْرانُ في مَنظُومة القِيَم العليا

العُمْرانُ في مَنظُومة القِيَم العليا(١)

تمهيد

نعود في هذا المقام إلى ما سمّاه شيخنا العلواني بالقيم العليا الحاكمة الثلاث: التوحيد والتزكية والعُمران، لنتناول قيمة العُمران، بوصفه مفهوماً مركزياً من مفاهيم القرآن الكريم، ولنجتهد في تقديم رؤية معرفية لهذا المفهوم من مرجعية قرآنية. وسيكون حديثنا عن العُمران من منطق "الفقه" بقيمة العمران، وعلاقة هذه "القيمة" بالحياة التي يريدها الله للإنسان، فهو الفهم المنشود لخطاب الله سبحانه المتعلق بأفعال الناس الذين تَوجَّه الخطاب إليهم، من حيث بيان ما يريده بهم ويندبهم إليه، أو يحرِّمُه عليهم وينزِّهُهُم عنه. فالعُمران إذن قيمة تحدِّد فقه العمل في الحياة الدنيا، ولا سيَّما عمل المجتمع، المتعلق بنظم الإدارة والرعاية لشؤون الناس بتيسير سبل الحياة لهم، ورفع الحرج والمشقّة عنهم. وكما يتجلى فقه العُمران هذا في الجوانب المادية لحياة المجتمع، من أبنية وطرق، وزراعة وصناعة، يتجلّى كذلك في الجوانب المعنوية لحياة المجتمع في استتباب الأمن، وإقامة العدل، وممارسة الشورى؛ فيكون شأن الخاصة من الأغنياء والحكام هو السهر على مصالح الناس والرحمة بهم، ويكون شأن العامة من الناس الدعاء للأغنياء والحكام بالخير ومزيد من البركة، والقوة.

ويوم فَقِهَ المسلمون "فِقْهَ العُمران" على هذا الوجه، كثر الخير فيهم،

---

(١) أصل هذا الفصل مقالة قصيرة (كلمة التحرير) نشرت في مجلة **إسلامية المعرفة**، وتم تطويرها فيما بعد. انظر:

- ملكاوي، فتحي حسن. "العمران في منظومة القيم الحاكمة"، **إسلامية المعرفة**، ع٥٩، خريف ٢٠١٠م، ص٥-٢٤.

وانتشرت مؤسسات العلم بينهم، ففتح الله عليهم بركات من السماء والأرض، وأكلوا من بين أيديهم ومن تحت أرجلهم، وأبدعوا من أساليب رغد العيش، وأشاعوا من قيم الرقي والحضارة، ما جعلهم قبلة للأمم الأخرى.

ويوم غفل المسلمون عن "فِقْه العُمران" على ذلك الوجه، ضعف شأنهم، وانهار سلطانهم وخرب عمرانهم، وتسلط عليهم عدوُّهم. وقد كان من وجوه الغفلة ضعف الهمَّة، والتخاذل عن صعود القمَّة، وإيثار حياة الخمول والكسل. وقد أسهمتْ في ذلك أحياناً، علومٌ غريبة وفهومٌ سقيمة، ليست من فقه الشريعة في شيء، روَّجت لتحقير الحياة الدنيا، وإنكار قيمتها، والإعراض عن شؤونها، والإهمال في رعاية شؤون المجتمع وحفظ مصالحه، والانتماء للأمة وأداء حقوقها.

وسوف نبدأ حديثنا على العُمران -على عادتنا في تناول المفاهيم القرآنية- باستقراء ما ورد عنه في لغة القرآن، ثم نتحدث عن العلاقة التي يَبْنِيها القرآنُ الكريم بين إعمار الأرض وطبيعة الحياة عليها، والمصير بعدها. وليس من المناسب أن ينتهي الحديث عن العمران دون الإشارة إلى عبد الرحمن بن خلدون الذي استلهم الهَدْي القرآني لينشئ عِلْماً جديداً أسماه علْمَ العُمران البشري.

أولاً: العُمران في لغة القرآن

جاءت مادة عَمَرَ في القرآن الكريم خمساً وعشرين مرَّة؛ في ثلاث منها على صيغة اسم علَم: "آل عِمران" ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣]، و"ابنة عمران" ﴿وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم: ١٢]، و"امرأة عمران" ﴿إِذۡ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [آل عمران: ٣٥].

وثلاث مرات منها اسماً لنُسك العُمْرة التي تتمُّ في سائر أيام العام، مما يُبقي المسجدَ الحرام عامراً بالمعتمرين، ومعموراً بهم على مدار العام، على حين يأتي

الحج مرة واحدة من العام. ﴿ وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِۖ وَلَا تَحْلِقُواْ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْيُ مَحِلَّهُۥۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِي ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [البقرة:١٩٦]

وجاءت في ثلاث مرات متعلقة بعُمران المساجد وبنائها وخدمتها والإقامة فيها: ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِي ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ۞أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [التوبة: ١٧ – ١٩]. وجاءت مرة واحدة إشارة إلى البيت المعمور: ﴿ وَٱلطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ﴾ [الطور: ١ - ٤] الذي قد يكون المسجد الحرام الذي يعمره الناس، أو يكون بيتاً في السماء تعمره الملائكة.

وجاءت ثلاث مرات أخرى بمعنى الإقامة والاستقرار في الأرض وفلاحتها وبناء المساكن وتشييد القصور والأخذ بأسباب الحضارة والتخلي عن حياة التنقل والبادية. وقد تحدث الله عن أقوام أقاموا في الأرض مدة طويلة وامتلكوا فيها القوة وزرعوا الأرض واستخرجوا معادنها ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [الروم: ٩] ولعلَّ هؤلاء هم عاد، قوم نَبيِّ الله هود، الذين بَنوا المباني في المرتفع من الأرض وشيدوا القصور والحصون ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ [الشعراء: ١٢٨ - ١٢٩] ويظنُّون أنَّهم مخلدون في هذه الأرض على طول الزمن.

وجاءت مرة واحدة بمعنى الحياة حين أقسم الله سبحانه وتعالى بحياة نبيه محمد ﷺ: ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الحجر: ٧٢].

أما بقية المرات، فجميعها إشارة إلى مرور الزمن في حياة الإنسان حتى يمرَّ من عُمُره سنين، أو يطولَ عُمُره، أو يبلغَ أرذلَ العُمُر: ﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَاءِ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [الأنبياء: ٤٤]، ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ [النحل: ٧٠].

ولا شك في أنَّ مرور الزمن أمر مطلوب لإنجاز الأعمال، وتنفيذ المهمات، وتحقيق الأهداف، فمرور الزمن عنصر في نموّ الفرد الإنساني وتحقُّقِه ببعض الخصائص، واستكمال بعض المتطلبات المادية والمعنوية. ومرور الزمن عنصر في تحقق المجتمع بمستوى معين من مستويات البناء والتشكل الحضاري. ولمالك بن نبي معادلة تجمع عناصر الحضارة يتبين فيها دور كلٍ من جهد الإنسان في جمعه للأسباب المادية، ومرور الوقت الكافي لتطوير مؤسسات الحضارة وأدواتها. لكنَّه يرى أنَّ اجتماع هذه العناصر الثلاثة: (الإنسان، التراب، الوقت)،[1] لا تنتج عنه بالضرورة حالة حضارية، وإنَّما يحتاج ذلك إلى قدر من الطاقة الروحية، أو الشعلة القادرة على تفعيل هذه العناصر واستثمارها لتؤدي دورها في الإنجاز الحضاري.



مكونات البناء الحضاري عند مالك بن نبي

(١) ابن نبي، مالك. **شروط النهضة**. ترجمة: عبد الصبور شاهين وعمر كامل مسقاوي، دمشق: دار الفكر، ١٩٧٩م، ص٤٤.

وما يقابل العُمران في اللفظ القرآني هو: الفساد، والقتل، وسفك الدماء، والهدم، والتدمير، والهواء، والخواء، والخراب؛ إذ وردت جميع هذه الألفاظ في القرآن الكريم، في مقابل بقاء الحياة واستمرارها على السنن والقوانين الجارية، وبقاء المساجد عامرة بالعابدين الذين يذكرون الله، وانتظام الحياة على هدي الله سبحانه.

وعلى هذا يأتي العُمران في اللفظ القرآني بعدد من المعاني المتداخلة التي تمثل حقلاً دلالياً، تتكامل دلالاته، فهو يعني: حالة الحياة، والإقامة والسكنى والبناء في المكان، ويعني العمران المادي، والعمران الثقافي والفكري. وفي الفقرات الآتية بيان موجز لهذه الدلالات، وأمثلة عليها من آيات القرآن الكريم.

١ - حالة الحياة

تتحقق حياة الفرد الإنساني مع مرور الوقت وتوالي الأيام والسنين طوال عُمُره في حياته على الأرض: ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴾ [الشعراء:١٨]، فالفرد الإنساني يبدأ حياته في بطن أمه، ثم يخرج إلى الحياة الدنيا، ثم ينتهي عُمُره فيأتي عليه الموت وتنتهي حياته الدنيا، فيكون في بطن الأرض، حتى تقوم القيامة فيقوم إلى الحياة الأبدية الأخرى. ويبدأ الفرد الإنساني حياته الدنيا وليداً، ثم طفلاً لم يبلغ الحلم، ثم يبلغ أشدَّه، ثم يكون شيخاً كبيراً، ويصل إلى أرذل العمر. ومثلما يكون للفرد عُمُره في الحياة، يكون للأمة عُمُرها كذلك، فيمر عليها الزمن سنين وأجيالاً، محتفظة بحياتها؛ حضوراً وسلطاناً واستقراراً، في كينونة محددة، فإذا انتهى عمرها، يتوقف وجودها، فتندثر وتختفي هويتها، ويزول سلطانها، وتنتهي إلى التدمير، وتصبح بيوتُها التي كانت عامرة بأصحابها خاويةً خربة، غير مسكونة: ﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [النمل: ٥١ - ٥٢] والعُمُر بمرور

الزمن قد لا يُعدُّ في القيمة والاعتبار حياةً، إذا لم يكن العمر عامراً بالحياة التي يريدها الله للإنسان حين يستجيب لما يدعوه الله إليه، مما تكون به الحياة الحقيقية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ ﴾ [الأنفال: ٢٤] ودون استجابة الناس لدعوة الله إلى ما تتحقق به حياتهم، بامتلاء أعمارهم بقيم الحق والخير والصلاح، لا تكون لأعمارهم قيمةٌ حقيقية، ولا تكون حياتهم في نهاية المطاف إلا ضلالاً وباطلاً.

وما يقابل معنى الحياة في أثناء عمر الإنسان على هذه الأرض، هو انتهاء الحياة بالموت، فإعمار الأرض مرتبط ارتباطاً مباشراً بالحياة في هذه الأرض بَرًّا وبحراً وجوّاً، وحفظ حياة الأحياء في أوساط الحياة المختلفة، وتجنب إنهاء الحياة بالقتل وإفساد أسباب الحياة ووسائلها. فمعنى الإحياءِ الواردُ فيما سبق يتصل اتصالاً مباشراً بعمران الأرض وإحيائها، على مستوى التوظيف الصالح لكل ما استودعه الله فيها، في برِّها وبحرها وجوِّها من الأشياء والظواهر والطاقات.

من أجل ذلك مثّل القرآن الكريم إنهاءَ حياة نفس بشرية ظلماً وفساداً، بإنهاء الحياة البشرية كلها، وإحياءَها بإحياء البشر جميعاً، ذلك أنَّه:﴿ مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡأَرۡضِ لَمُسۡرِفُونَ ﴾ [المائدة: ٣٢] فالإعلاء من قيمة الحياة وإقرار قُدسيتها والمحافظة عليها: هو إعمار للأرض؛ وقتل الحياة إفساد فيها. وربّما أخذ "الراغب" معنى العُمُر من عمران بدن الإنسان بالحياة،(١) وكما أن الاستعمار هو طلب الإعمار، وفعْلُ الإعمار والتعمير هو الصورة التي تتحقق بها الخلافة في الأرض، كلِّ الأرض، ما دامت الحياة على الأرض:﴿ إِنِّي جَاعِلٞ

---

(١) الأصفهاني، الراغب. **معجم ألفاظ القرآن الكريم**. تحقيق: إبراهيم شمس الدين، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٧م، مادة عَمَر.

فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة: ٣٠] فإنَّ الوجه النقيض لفعل العمران وتحقيق الخلافة في الأرض، هو السعي فيها فساداً. وأشدُّ صور الفساد والإفساد هو قتل النفس وإنهاء حياتها.

إنَّ قيام الفرد الإنساني بأمانة الخلافة في الأرض ومهمة العمران فيها، هي وظيفة تُعَمَّر بها حياةُ الفرد حتى انتهاء عمره بالموت، وتمتدُّ لتعَمِّر حياةَ غيره بعد موته، بالصدقة الجارية، والعلم النافع، والولد الصالح: "إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له،"(١) فضلاً عن عمران حياته الأبدية في الآخرة. وهي كذلك وظيفة ممتدة للنوع الإنساني، من جيل إلى آخر ومن أمَّة إلى أخرى، طوال عهد النوع الإنساني على هذه الأرض. وإذا اختل هذا العمران وتعطل بالفساد، تحوّلت معيشة الإنسان في الدنيا إلى ضلال وضنك: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه: ١٢٤] فالعُمرانُ حياةٌ وفق هداية الله، وهي خير وبركة في الدنيا والآخرة، والفساد معيشة ضيق وضنك في الدنيا والآخرة.

والإنسان يسعى في هذه الدنيا طول عمره، ليعمر حياته بأنواع من العمل والكسب المادي والمعنوي. وقد يكون سعيه في ذلك كله ابتغاء الآخرة حتى إنه ليكاد ينسى نصيبه من الدنيا: ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ ﴾ [القصص: ٧٧]. وفي مثل هذه الحالة فإن الإنسان يعْمُر دارَ مُرُوره ويعمر دار مستقره. ﴿ مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧]. ومن الناس من يسعى مجتهداً، ليعمر دار الدنيا بألوان الكسب المادي، والمعنوي، ويكون غافلاً تماماً عن عمران الآخرة، فلا يكون مصير سعيه في الدنيا وعمرانه فيها غير الضلال: ﴿ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ [الكهف: ١٠٤].

---

(١) النيسابوري، مسلم بن الحجاج. **صحيح مسلم**. بيروت: دار ابن حزم، ط١، ١٩٩٥م، كتاب الوصية، باب ما يلحق الانسان من الثواب بعد وفاته، حديث رقم ١٦٣١، ص١٠١٦.

فعمران الحياة في الدنيا مع خراب الآخرة، لا يعد في النتيجة عمراناً، وفي ذلك يقول أبو الفتح البستي:[1]

يا عامراً لخَرابِ الدارِ مجتهدا بالله هل لخراب العُمْرِ عُمرانُ

فقيام الإنسان بوظيفة الإعمار في الأرض استجابة لدعوة الله سبحانه لما فيه حياة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٤] ورفض الاستجابة لله والرسول والتولّي عنهما هو سعي في الأرض بالفساد والإهلاك: ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾ [البقرة: ٢٠٥] وأيّما فرد يتولَّى عن دعوة الله لإقامة الحياة، ويسعى في الأرض فساداً، ويهلك الحرث والنسل، فإنَّ نتيجة ظلمه وإفساده لا تقع عليه خاصة، وإنما تمتد لتكون النتيجة عامة للحرث والنسل، إذا لم تأخذ الجماعة على يديه فتمنعه من إيقاع الظلم والإفساد. وأيّما أمّة من الأمم تتولى عن دعوة الله لإقامة الحياة وإعمار الأرض وابتغاء الرشد، وتسعى في إيقاع الظلم والإفساد، بسفك الدماء في الحروب الظالمة، وتعطيل مصالح الناس في كسب الرزق من جنبات الأرض زراعة واستصلاحاً، والإسراف في استخدام طاقات الأرض بغير رشد، وملئها بالسموم والملوثات، فإن نتيجة ذلك ستكون إهلاكاً للحرث والنسل في الأرض كلها، وفتنة تصيب جميع الأمم، إنْ لم تقمْ أمم الأرض بالأخذ على يد الأمة الظالمة والمفسدة. فهذه الأرض التي استخلف اللهُ الإنسانَ فيها هي سفينة، إنْ غرقت غرق كلٌّ من فيها من الصالحين والفاسدين على حدٍ سواء، أمَّا حسابهم فهو شأن الله سبحانه يتولاه بعِلْمِه ورحمته وعدله.

والقصص القرآني مليء بالأمثلة على حالة الإنجاز الدنيوي الذي يمثل فساداً وإفساداً، والإنجاز الدنيوي الذي يمثل عمراناً وإصلاحاً. ومن ذلك

---

(١) هو: علي بن محمد، البُسْتي. والبستي نسبة إلى (بُست) من بلاد الأفغان، عاش في القرن الرابع وتوفي في بخارى عام ٤٠٠ للهجرة. والبيت من قصيدته النونية المشهورة التي مطلعها:
زيادَةُ المَرء في دُنياهُ نقصانُ ... وربْحُهُ غَيرَ محض الخَير خُسرانُ

ما ذكره الله سبحانه عن قارون الذي كان من قوم موسى عليه السلام، وقد حذره قومه من الفساد ونصحوه أن يبتغي الدار الآخرة فيما يجمع من المال، من الإنفاق في مصالح الناس وتيسر شؤون حياتهم، دون أن ينسى نصيبه من الدنيا من زينة الحياة وأسباب الرفاه، لكنه تحالف مع السلطان الفاسد، فمجمع من الأموال ما إنَّ مفاتيح خزائنه تعجز عن حملها العصبة القوية من الناس، وادَّعى أن ما جمعه من مال هو ملكه، وأنه جمعه بعلمه بخبرته ومهارته، أو بكرامته على الله وتفضيليه له[1]، ولما لم يأخذ بنصيحه قومه في تصريف المال وإنفاقه، وانفصل العمران الدنيوي المتمثل بجمع المال، عن قيم العمران النافع،كانت النتيجة أن خسف الله به وبماله الأرض، فلم ينتفع منه بشيء.

وفي المقابل تجيء قصة ذي القرنين مثالاً على توظيف العلم والخبرة في تقوى الله، ونفع خلق الله، والعمران الصالح المرتبط بقيم المساعدة وتقديم العون، والبناء النافع. فحين طلب منه القوم الذي كانوا بين السدين مساعدتهم في بناء السور، مقابل أن يعطوه أجراً على ذلك، قام بتوظيف ما مكنه الله منه من علم وخبرة، وما طلبة من القوم من توظيف اليد العاملة في جمع المواد الخام اللازمة للبناء، وقدم ذلك خدمة لهم دون أن يأخذ على ذلك أجراً.

الحياة الطيبة في الدنيا تتحقق إذن من سعادة النفس، وصلاح البال، وعموم الخير، واجتماع الناس على الألفة والمودة، وشيوع الأمن، وتحقق التعارف والتعاون، وتوفر أسباب الرغد... حين يعمُرُها العمل الصالح؛ صلاحاً وإصلاحاً:

---

(١) ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر. **شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل**: بيروت: دار المعرفة، ١٩٧٨، ص ٣٨. يقول: "والمقصود أن قوله على علم عندي إن أريد به علمه نفسه كان المعنى أوتيته على ما عندي من العلم والخبرة والمعرفة التي توصلت بها إلى ذلك وحصلته بها وإن أريد به علم الله كان المعنى أوتيته على ما علم الله عندي من الخير والاستحقاق وإني أهله وذلك من كرامتي عليه وقد يترجح هذا القول بقوله أوتيته ولم يقل حصلته واكتسبته بعلمي ومعرفتي."

﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [النحل: ٩٧] وتصبحُ حياةَ ضلال وضنك، عندما يتناوشها الفساد والإفساد. وينطبق ذلك في حالة الفرد وفي حالة الجماعة والأمة والبشرية كلها؛ أمَّا الحياة الطيبة في الآخرة فهي جزاءٌ أحسن، ونتيجةٌ أفضل، تترتَّب على عُمران الدنيا بالعمل الصالح، والجهد الإصلاحي.

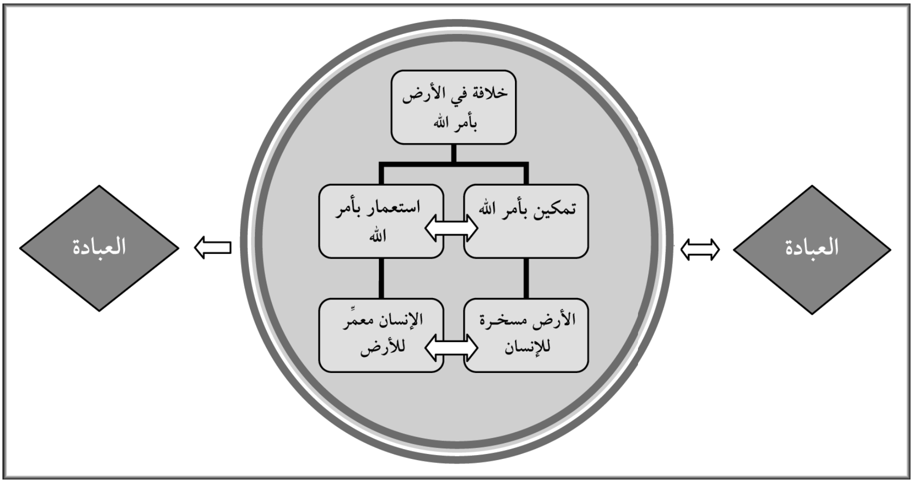
وحياة الناس في الدنيا لا تتحقق إلا باجتماع الناس وتعاونهم على شؤونها؛ ذلك أنّ "الإنسان مدنيٌّ بالطبع" لا يعيش الفرد وحيداً منفرداً، ولكنَّه يعيش في أُسْرَة، تنتظم حياتَها أحكامٌ وعلاقات وأنظمة ومسؤوليات، وتتجمَّعُ الأُسَر في جماعات وفي شعوب وقبائل وأمم، وتتوزَّعُ في مجتمعات ودول، وتنشأ بينهم علاقات تعارف وتعاون وتبادل للمنافع، مما يكون في حالة السلم، كما تنشأ بينهم عداوات وتنافسات وحروب. وتنشأ في حياة الناس أنماط معيشية مختلفة، من الطعام والشراب واللباس والمباني وأساليب الانتقال والاتصال، ويكون لكل فرد سيرته، من الغنى والفقر، والصحة والمرض، والعلم والجهل، ويكون لكل أمَّة تاريخُها، من بداوة وحضارة، وتخلُّف وتقدم، وعلوم وصنائع... وهكذا. ثم يأتي من يكتب السيرة والتاريخ، فيحتاج إلى الفهم السليم لطبيعة العمران البشري، وقوانين هذا العمران في أحواله وتحولاته، حتى يتمكن من توثيق الأحداث والوقائع وامتحان الروايات سنداً ومتناً، مهتدياً بما يعْلَمُه من حقائق الأشياء وطبائع الأمور.

ولم تكن حياة الناس على هذه الأرض عبثاً، فقد جاء خلق الإنسان لغاية محددة هي عبادة الله سبحانه: [وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ] [الذاريات: ٥٦] ولفهم معنى العبادة في سياق الغاية من خلق الإنسان جاءت الآيات الأخرى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة:٣٠] فالخلافة في الأرض هي معنى العبادة، والخلافة هي إعمار الأرض: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا

﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هود:٦١]. فالعمران هو شأن الإنسان في حياته الدنيا، في هذه الأرض، ليتولى فيها العمران وليقوم بحمل الأمانة. وإذا كانت كل المخلوقات -غير الإنسان- تعبد الله وتسبح له، وتخضع لسننه طائعة غير مختارة، فإنَّ الإنسان في حياته الدنيا يأتي بالعبادة اختياراً، مثلما يؤمن بالتوحيد اختياراً.

لقد جاء خلق الإنسان من الأرض، فكانت الأرض قبل الإنسان، ثم جاء الإنسان ليكون خليفة في الأرض، ولذلك فإنَّ الله قد حمَّله أمانة الخلافة في الأرض، بعد أن مكَّنه فيها: [وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ] [الأعراف: ١٠] وسخَّرها له: ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةًۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ [لقمان: ٢٠] ولذلك فهو مسؤول عن القيام بهذه الخلافة على وجهها. وتلك هي العبادة الحقة، فهي غاية الحق من الخلق.

ويمكن تمثيل مركزية العُمران في حياة الإنسان في المخطط الآتي الذي يرسم منظومة المفاهيم القرآنية؛ إذ تظهر غاية الحق من الخلق في بداية المخطط، فغاية خلق الإنسان في الحياة الدنيا هي القيام بعبادة الله، وهذه هي الخلافة في الأرض. ولكي تتحقق الخلافة في الأرض جاء تمكين الإنسان فيها، فهي مُسخّرة له، والإنسان ليس غريباً عن الأرض فهو منها، ولذلك فإن الله طلب منه إعمارها: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١] وقيامه بالإعمار إذن هو استجابة لدعوة الله لما فيه حياته الطيبة في الأرض، وحياته في جنات النعيم؛ وتلك هي العبادة بمعناها الأشمل، ولهذا فإن العبادة تظهر في نهاية المخطط، بوصفها التعبير الكلي عن المقصود بالعمران في الأرض.



٢ - الإقامة والسكنى والبناء في مكان محدد

فالعُمران هو الاستقرار في مكان محدد والتوطن فيه، والتخلي عن حياة التنقل في البادية والرحيل من مكان إلى آخر، واللجوءُ إلى الفلاحة والزراعة وتشييد المساكن والقصور واتخاذ المصانع لتوفير متطلبات الحياة المستقرة وتطوير أسبابها وأدواتها، ويتم هذا الاستقرار في الحياة في القرى والمدن، وبناء البيوت فيها، وهي حياة حضرية تنشأ في الحواضر من القرى والمدن المستقرة، بدلاً من الحياة البدوية المتنقلة في البادية. وقد جاء في القرآن الكريم على لسان نبيّ الله يوسف عليه السلام، أنَّ انتهاء عائلة يعقوب من حياة البدو وانتقالهم إلى المدينة كان فضلاً من الله وإحساناً: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ [يوسف: ١٠٠] وقد يكون في البادية بعض العمران المادي أو المعنوي، لكنه غير عمران الحاضرة، فأرض البادية قد تكون معمورة ببعض الساكنين في بعض الأحيان، ثم تكون قفراً ليس فيها

ساكن يعمرها، وقد أخذ الناس هذا المعنى القرآني للعمران، فقالوا: البيت العامر؛ أي البيت المسكون بأهله، والمعمورة؛ أي الكوكب الأرضي المعمور بالجنس البشري،[1] وانتشر العمران في البلد؛ أي كَثُر فيه من الناس مَنْ بَنَى البيوت وسكنها.

٣ - العُمران المادي

والعمران المادي للأرض هو الجانب المادي من الحضارة البشرية، ويتحقق نتيجة تراكم الخبرة والتجربة، مع مرور الوقت، وتطور معرفة الإنسان واكتشافه السنن والقوانين التي تحكم الأشياء والظواهر، وملاحظة اضطرادها، واستشراف وقوع الأحداث والظواهر وتوقعها، ومن ثَمَّ استغلال ما تُتيحُه من فُرَص، وتجنُّب ما تُمثِّله من تحدِّيات، وبذلك تزدهر العلوم وتتطوَّر تطبيقاتها، ويتحقَّق للإنسان بذلك التمكين في الأرض وتسخيرها، فيشيد فيها المباني والقصور، ويشق الطرق ويقيم الجسور، ويبني المصانع، وينتج البضائع، ويطور وسائل الانتقال: سيارات وقطارات على البر، وسفن في البحر، وطائرات في الجو،... وغير ذلك مما يكون فيه مظاهر العمران، وتمتلئ به أنماط الحضارة التقليدية، إضافة إلى ما وصلت إليه الحضارة الرقمية الافتراضية من اختراعات حديثة، تجعل الناس يلتقون ويتحدثون ويتبادلون العلوم والفنون والمنتجات، دون أن يغادر أحدهم فراش نومه!

ويكون إعمار الأرض باستصلاحها بالفلاحة والزراعة، وتنمية سبل الرزق حتى لا تبقى في الأرض مساحات معطلة من الإنتاج، ولا تبقى بين الناس أيدٍ معطلةٌ عن العمل، ويكون إعمار الأرض بالبناء عليها، وتيسير سبل السعي فيها من طرق وأساليب في الانتقال والتواصل بين ساكنيها: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا ﴾ [الروم: ٩].

---

(١) في حدود علم الإنسان أن الأرض هو الكوكب الوحيد المعمور بالناس.

ويكون إعمار الأرض إعماراً لبرِّها وبحرها، وقد جمع الله سبحانه وتعالى البر والبحر في حالة الفساد الذي أحدثه الناس في الأرض: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم: ٤١]. ولتجنب هذا الفساد، لا بد من إعمار البحر، مثل إعمار البر. وما تقوم به بعض المجتمعات من دفن الفضلات النووية والمشعة في البر والبحر إنما هو إفساد للبر والبحر وما تنفثه المصانع والآلات من الملوثات إنما هو إفساد للجو كذلك إضافة إلى إفساد البر والبحر.

٤ - العُمران الثقافي والفكري

وهو الجانب المعنوي من الحضارة البشرية، ويتحقق نتيجة تطور خبرة الجماعات والشعوب في ما يتعلق بتنظيم أمور الحياة الاجتماعية والمعيشة الاقتصادية، وسنّ القوانين والأنظمة التي تحكم العلاقات بين الناس المقيمين في المكان، فتنشأ الثقافات، وتتكرَّس الأعراف والعادات، ويتقبَّل الناس الخضوع لسلطة الإدارة والحكم لتحقيق الأمن والاستقرار. ولعلّ القدرات التي زود الله بها الإنسان على سائر المخلوقات حتى الملائكة، حين علمه الأسماء كلها، كانت جزءاً من عملية التمكين في الأرض، حتى يتمكن من أداء مهمة العمران، في هذا الجانب المعنوي والثقافي من الحضارة البشرية.

وإذا كان الله سبحانه قد أثنى على من يَعْمُر مساجد الله، فإنه في المقابل قد ذمَّ من يسعى في خرابها: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة: ١١٤]. وقد أرسى الله سبحانه في حياة الناس سنناً تحقق حكمة الخلق والتنوع والاختلاف، منها سنّة التدافع بين فئات الناس، وهي السنَّة التي تحفظ بيوت الله التي بُنِيَت لذكره وعبادته من أن تُهدمَ كلما بُنيت: ﴿ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴾ [الحج: ٤٠]. فَدَفْعُ الله المؤمنين

من عباده لمواجهة أعدائهم، هو الذي يبقي المنشآت التي أقامها الناس لعبادة الله، قائمة يعمرها الناس بالعبادة والذِّكر فلا تهدم أو يتوقف عمرانها. ودفع الله لقوى الخير والإصلاح لمواجهة قوى الفساد والاستبداد، هو الذي يعمر البلاد بالأمن والعدل وتحقيق صور العمران.

ومن هذه السنن أن يجتمع الناس على أنظمة وقوانين تنظم شؤونهم، فيقبلون بحاكم يحكمهم، ويلجأ الحاكم إلى مشورة أهل الرأي ممن ينتخبه الناس، فينزل على رأيهم، وينشأ بين الناس من أهل الحكم والقضاء من يفصل في منازعات الناس ويضبط حقوقهم.

ومن هذه السنن اختلاف الناس في كسبهم من العلم والمعرفة، فيلجأ قليل العلم إلى سؤال الأكثر علماً، فتنشأ المدارس والجامعات، ومعاهد التدريب والدراسات، ومراكز البحث وحل المشكلات. كل ذلك وأمثاله من مظاهر التطور والرقي العمراني في الفكر والثقافة والتنظيم والإدارة، فالناس بها يتفاخرون، وعليها يتنافسون، وعلى أساس كسبهم فيها يصنفون، فمنهم بلاد العالم الأول في تقدمه، ومنهم بلاد العالم الثالث في تخلفه.

ومن السنن المستقرة والقوانين الثابتة التي تسير وَفْقها حياة الناس في الأرض أنَّ عمرانَ البلاد وخرابَها، وطيبَ الحياة وبؤسَها، إنَّما هو نتيجة لأعمال الناس وممارساتهم، وقد قصَّ علينا القرآن الكريم أنباءً عن أمم بلغت من العمران المادي والمعنوي شأواً بعيداً، لكنها لم تشكر نعمة الله، فركنت إلى الظلم؛ ظلم النفس وظلم الآخرين، فقضت سنة الله بهلاك أهلها بسبب ظلمهم، فأصبحت البلادُ خاويةً على عروشها، ومظاهرُ الحضارة والعمران مادةً لا روح فيها؛ فالقصور المشيدة لا تزال قائمة، لكنها خلت من ساكنيها الظالمين، ولم تغن عنهم قصورهم أو عمرانهم شيئاً. أمَّا مظاهر الحضارة والعمران، والماءُ روحها، فلا تزال صالحة للاستعمال، لكنها أصبحت معطلة لا تجد من الناس من يوظفها، ويستفيد منها، وبقيت شاهدة على ما وصل

إليها أهلها من عمران لم يحفظوه، ونعمة لم يشكروها: ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئۡرٖ مُّعَطَّلَةٖ وَقَصۡرٖ مَّشِيدٍ ﴾ [الحج: ٤٥].

الهلاك هنا لم يكن خراباً للمباني والقصور، نتيجة زلزال مدمر مثلاً، ولم يكن نتيجة تعطل أسباب الحياة الأساسية، مثل عدم توفر مصادر المياه: ﴿... وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٠] لكن الهلاك أصاب الناس مع بقاء العمران المادي قائماً، وبقاء أسباب الحياة وافرة. ولعلَّ في هذه الحقيقة تفسيراً لما تعاني منه بعض مجتمعاتنا العربية والإسلامية، التي يتوفر فيها الكثير من مظاهر العمران المادي وأسباب الرغد في الحياة المادية، لكنَّ النَّاس ركنوا إلى حياة الكسل، والاستهلاك، والاعتماد على الآخرين، لتأمين أسباب الحياة، فليس لهم قوة تردع عدوهم، ولا إنتاج يغنيهم على غيرهم، ولا سياسات عادلة في الحكم توفر لهم الاستقرار والأمن، وتبني روح الانتماء إلى المجتمع والحرص على مقوماته، ولا نظم عادلة في الاقتصاد، توفر للناس فرص العمل، وتستهدف الإنفاق في الأولويات والضروريات من الإنتاج الزراعي والصناعي.

مثل هذا الواقع جعل الحياة عند أكثر الناس في حالة من "الهلاك"، و"الخواء". وبدلاً من أن تمتلئ حياتهم بالعمل الصالح، والجهد المصلح، والعطاء المتصل، والأمل المتسع، والإسهام المبدع، فيكون لهم بذلك موقع الريادة في الحضارة المعاصرة، أو على الأقل المشاركة الفعالة والإسهام المتميّز فيها، امتلأت حياتهم بالتشكي والتحاسد والتلاعن والتطاعن، الأمر الذي أوصلهم إلى اليأس من إمكانية الإصلاح، فهم هلكى وموتى وهياكل حياة لا روح فيها.

دلالات العمران في لغة القرآن الكريم

الرقم	دلالة العمران	ما يقابل هذه الدلالة
١	الحياة، حياة الإنسان الفرد، ويقابلها الموت وحياة الأمة، بحضورها الفاعل، والحياة البشرية في الدنيا	ويقابلها موت الفرد والغياب الحضاري للأمة، أو الاندثار نهائياً، وبدء الحياة الآخرة
٢	التوطن في المكان (المدن والقرى) والإقامة فيه وبناء البيوت المعمورة الكوكب المسكون بالبشر	يقابله التنقل وحالة الرحيل الدائم، أو غياب الناس عن المكان أو خرابه
٣	العمران المادي؛ تشييد المباني والقصور وشق الطرق وإقامةالجسور وتطوير ووسائل الانتقال والزراعة والصناعة والتجارة	الأرض المعطلة عن الإنتاج، والأيد المعطلة عن العمل، والعجز والمرض والفقر
٤	العمران الثقافي والفكري: تطوير العلوم وبناء المؤسسات، وسن القوانين والأنظمة ونشؤء الثقافات وقبول الخضوع لسلطة الإدارة والحكم	سيادة الجهل والأمية، والفوضى والفساد والاستبداد

ثانياً: العمران في لغة الحديث النبوي الشريف

وردت الألفاظ المشتقة من الجذر "عَمَرَ" في اثنين وثلاثين عموداً، من صفحات كتاب المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي التي نشرها المستشرق الهولندي أرندجان فنسنك، وحققها محمد فؤاد عبد الباقي، وفي كل عمود حوالي ثلاثين حديثاً من مرويات كتب الحديث التسعة: الصحيحان (البخاري ومسلم) والسنن الأربعة: الترمذي والنسائي وابن ماجة وأبو داود، وموطأ مالك، ومسند أحمد، وسنن الدارمي. لكن التصنيف الموضوعي لنصوص الأحاديث الواردة في الكتب التسعة حسب إحصاء المعجم المذكور ينتهي إلى عدد محدود من الدلالات، وهي تقع في الدلالات نفسها التي وردت في القرآن الكريم، إلا

فيما ورد عن العمرى بمعنى الهبة التي يمتلكها من أعمرت له، فهي له يعمرها ويستعملها ويستفيد منها. أما الحيات العوامر فالمعنى ليست بعيداً عن عمران البيت بمعنى السكنى فيها.

١- العُمُر بمعنى الزمن الذي يمضي من حياة الفرد الإنساني. وقد جعل البخاري باباً من أبواب كتاب الرقاق بعنوان: كتاب الرقاق باب من بلغ ستين سنة فقد أعذر الله إليه في العمر. ووضع فيه حديثاً نصه: "عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: أعذر الله إلى امرئ أخّر أجله حتى بلّغه ستين سنة."(١) "عن أنس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: يكبر ابن آدم ويكبر معه اثنتان: حب المال وطول العمر."(٢)

٢- أو المدة الطويلة. مكثت معه عُمُراً. حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَةَ، حَدَّثَنَا الْأَعْمَشُ عَنْ عُمَارَةَ عَنْ أَبِي الشَّعْثَاءِ قَالَ خَرَجْتُ حَاجًّا فَجِئْتُ حَتَّى دَخَلْتُ الْبَيْتَ فَلَمَّا كُنْتُ بَيْنَ السَّارِيَتَيْنِ مَضَيْتُ حَتَّى لَزِقْتُ بِالْحَائِطِ فَجَاءَ ابْنُ عُمَرَ فَصَلَّى إِلَى جَنْبِي فَصَلَّى أَرْبَعًا فَلَمَّا صَلَّى قُلْتُ أَيْنَ صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ الْبَيْتِ قَالَ أَخْبَرَنِي أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ أَنَّهُ صَلَّى هَاهُنَا فَقُلْتُ كَمْ صَلَّى قَالَ عَلَى هَذَا أَجِدُنِي أَلُومُ نَفْسِي إِنِّي مَكَثْتُ مَعَهُ عُمُرًا لَمْ أَسْأَلْهُ كَمْ صَلَّى...".(٣)

٣- والقسم بالعمر: لعمرك ولعمر الله. عن عبيد الله بن عبد الله قال: "وكل حدثني طائفة من الحديث، فقام النبي ﷺ، فاستعذر من عبد الله بن أبي، فقام أسيد بن حضير، فقال سعد بن عبادة لعمر الله لأقتلنّه."(٤)

---

(١) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كتاب الرقاق، باب من بلغ ستين سنة، حديث رقم ٦٤١٩، ص١٥٩٩.

(٢) المرجع السابق، كتاب الرقاق، باب من بلغ ستين سنة، حديث رقم ٦٤٢١، ص ١٦٠٠.

(٣) بن حنبل، الإمام أحمد. **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، بيروت: مؤسسة الرسالة، ٢٠٠١م، مسند النساء، حَدِيثُ أُمِّ كُرْزٍ الْخُزَاعِيَّةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، ج٤٥، حديث رقم ٢٧٦٣٣، ص٦٠٤.

(٤) البخاري. **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كتاب الأيمان والنذور، باب قول الرجل لعمر الله، حديث رقم ٦٦٦٢، ص١٦٥٠.

٤- والعمران وهو ضد الخراب. عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ، أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ بَعَثَ جُيُوشًا إِلَى الشَّام، فَخَرَجَ يَمْشِي مَعَ يَزِيدَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ، وَكَانَ أَمِيرَ رُبْعٍ مِنْ تِلْكَ الْأَرْبَاعِ، فَزَعَمُوا أَنَّ يَزِيدَ، قَالَ لِأَبِي بَكْرٍ: إِمَّا أَنْ تَرْكَبَ، وَإِمَّا أَنْ أَنْزِلَ. فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: "مَا أَنْتَ بِنَازِلٍ وَمَا أَنَا بِرَاكِبٍ، إِنِّي أَحْتَسِبُ خُطَايَ هَذِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ"، ثُمَّ قَالَ لَهُ: "إِنَّكَ سَتَجِدُ قَوْمًا زَعَمُوا أَنَّهُمْ حَبَسُوا أَنْفُسَهُمْ لِلَّهِ، فَذَرْهُمْ وَمَا زَعَمُوا أَنَّهُمْ حَبَسُوا أَنْفُسَهُمْ لَهُ، وَسَتَجِدُ قَوْمًا، فَحَصُوا عَنْ أَوْسَاطِ رُءُوسِهِمْ مِنَ الشَّعَرِ، فَاضْرِبْ مَا فَحَصُوا عَنْهُ بِالسَّيْفِ، وَإِنِّي مُوصِيكَ بِعَشْرٍ: لَا تَقْتُلَنَّ امْرَأَةً، وَلَا صَبِيًّا، وَلَا كَبِيرًا هَرِمًا، وَلَا تَقْطَعَنَّ شَجَرًا مُثْمِرًا، وَلَا تُخَرِّبَنَّ عَامِرًا، وَلَا تَعْقِرَنَّ شَاةً، وَلَا بَعِيرًا إِلَّا لِمَأْكَلَةٍ، وَلَا تَحْرِقَنَّ نَحْلًا، وَلَا تُغَرِّقَنَّهُ، وَلَا تَغْلُلْ، وَلَا تَجْبُنْ".(١)

٥- عمران الروح للجسد أو الحياة. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: "إِذَا خَرَجَتْ رُوحُ الْمُؤْمِنِ تَلَقَّاهَا مَلَكَانِ يُصْعِدَانِهَا، قَالَ حَمَّادٌ: فَذَكَرَ مِنْ طِيبِ رِيحِهَا وَذَكَرَ الْمِسْكَ، قَالَ: وَيَقُولُ أَهْلُ السَّمَاءِ رُوحٌ طَيِّبَةٌ جَاءَتْ مِنْ قِبَلِ الْأَرْضِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْكِ وَعَلَى جَسَدٍ كُنْتِ تَعْمُرِينَهُ ..."(٢)

٦- وعمران القلوب والبيوت بالقرآن. حَدَّثَنَا الْمُعَلَّى بْنُ أَسَد، حَدَّثَنَا سَلَّامٌ يَعْنِي ابْنَ أَبِي مُطِيعٍ، قَالَ: كَانَ قَتَادَةُ، يَقُولُ: "اعْمُرُوا بِهِ قُلُوبَكُمْ، وَاعْمُرُوا بِهِ بُيُوتَكُمْ"، قَالَ: أُرَاهُ يَعْنِي: الْقُرْآنَ.(٣)

---

(١) بن أنس، مالك. **موطأ الإمام مالك**. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، القاهرة: مصطفى البابي الحلبي، ١٩٨٥م، كتاب الجهاد، باب النهي عن قتل النساء والولدان في الغزو، ح٢، حديث رقم ١٠ ص٤٤٧-٤٤٨.

(٢) الإمام مسلم، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب الجنة، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه. حديث رقم ٢٨٧٢، ص١١٥١.

(٣) الدارمي، عبد الله بن عبد الرحمن. **مسند الدارمي**، المعروف بسنن الدارمي. تحقيق: حسين سليم الداراني، الرياض: دار المغني، ١٤٢٠هـ، كتاب فضائل القرآن، باب في تعاهد القرآن، حديث رقم ٣٣٨٥. ص٣٧٥.

٧- وعمران المساجد أي بناؤها المادي أو حضور الصلاة وحلقات العلم فيها. عن النعمان بن بشير: كنت عند منبر رسول الله ﷺ، فقال رجل: ما أبالي أن لا أعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن أسقي الحاج، وقال آخر: ما أبالي أن لا أعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن أعمر المسجد الحرام، وقال آخر: الجهاد في سبيل الله افضل مما قلتم، فزجرهم عمر وقال: لا ترفعوا أصواتهم عند منبر رسول الله ﷺ، وهو يوم الجمعة، ولكن إذا صليت الجمعة دخلت عليه واستفتيته فيما اختلفتم فيه، فأنزل الله عز وجل: "﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ الآية إلى آخرها: التوبة ١٩.[(١)]

٨- والسبيل العامر المألوف المطروق، فسأله فقال يا رسول الله اللقطة نجدها في السبيل العامر، قال: عرِّفْها سَنَةً فإن جاء صاحبها، وإلا فهي لك. قال يا رسول الله ما يوجد في الخراب العادي قال: فيه وفي الركاز الخمس.[(٢)]

٩- والعوامر من الحيات التي تسكن مع الناس في بيوتهم. قال عبد الله: فبينا أنا أطارد حية لأقتلها، فناداني أبو لبابة: لا تقتلها، فقلت إن رسول الله ﷺ قد أمر بقتل الحيّات، فقال: إنه نهى بعد ذلك عن ذوات البيوت، وهي العوامر."[(٣)]

١٠-والبيت المعمور في السماء السابعة. "عن أنس قال: قال النبي ﷺ... فأتينا السماء السابعة... فأتيت على إبراهيم، فسلّمت عليه فقال: مرحباً بك من ابن ونبي، فرفع لي البيت المعمور، فسألت جبريل فقال هذا البيت المعمور، يصلّي فيه كل يوم سبعون ألف ملك، إذا خرجوا لم يعودوا إليه آخر ما عليهم..."[(٤)]

---

(١) الإمام مسلم، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب الإمارة باب فضل الشهادة في سبيل الله. حديث رقم ١٨٧٩، ص٧٨٣.

(٢) ابن حنبل، الإمام أحمد. **مسند أحمد بن حنبل**، الرياض: دار الأفكار، ١٩٩٤م، رقم الحديث ٦٨٩١، ص٥٢٣.

(٣) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كتاب بدء الخلق، باب قول الله تعالى: وبثّ فيها من كل دابّة"، حديث رقم ٣٢٩٨، ص٨١٢.

(٤) المرجع السابق، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، حديث رقم ٣٢٠٧، ص٧٩٣.

١١-والعمرة قرينة الحج إلى بيت الله الحرام. عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: "العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة."(١)

١٢-عمّر أرضاً وتولى عمارتها أي إصلاحها واستخدامها. عَنْ عَائِشَةَ ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّهُ قَالَ: "مَنْ عَمَّرَ أَرْضًا لَيْسَتْ لأَحَدٍ فَهُوَ أَحَقُّ بِهَا."(٢)

١٣-والله سبحانه استعمر الإنسان في الأرض فطلب منها إعمارها وعمرانها. أوضح الإمام البخاري معنى العمرى في الحديث الذي بدأ فيه الباب بقوله: باب ما قيل في العمرى والرقبى أعمرته الدار فهي عمرى جعلتها له استعمركم فيها جعلكم عمارا. أما الحديث فهو: عن جابر رضي الله عنه قال قضى النبي ﷺ بالعمرى أنها لمن وهبت له."(٣)

١٤-والعمرى الهبة والعطاء، يقال: أعمرته دارا أو أرضاً إذا أعطيته إيَّاها، وقلت له: هي لك مدة عمري أو عمرك، فإذا متَّ رجعت إليَّ، عن جابر ابن عبد الله الأنصاري أخبره أن رسول الله ﷺ، قال: "أيّما رجل أعمر رجلا عمرى له ولعقبه، قال: قد أعطيتُكَها وعقبَك ما بقي منكم أحد، فإنها لمن أعْطِيَها لا ترجع إلى صاحبها من أجل أنه أعطاها عطاء وقعت فيه المواريث."(٤)

---

(١) المرجع السابق، كتاب العمرة، باب العمرة: وجوب العمرة وفضلها، حديث رقم ١٧٧٣، ص٤٢٧.

(٢) بن حنبل، الإمام أحمد. **مسند الإمام أحمد بن حنبل**. تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، بيروت: مؤسسة الرسالة، ٢٠٠١م، مسند عائشة، ج٤١، حديث رقم ٢٤٨٨٣، ص٣٧٥. وثمة أحاديث كثيرة أخرى من أحيا أرضاً قال الإمام البخاري في صحيحه (٨٢٣/٢): (باب من أحيا أرضاً مواتاً، واضح أن عمران الأرض أو إعمارها يعني إصلاحَها بعد خراب أو أحياءَها بعد موات، فالعمران والإعمار هنا هو ما يقابل الموات والخراب).

(٣) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كتاب الهبة، باب ما قيل في العمرى والرقبى، الحديث رقم ٢٤٨٢، ص٦٣٦.

(٤) الإمام مسلم، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب الهبات، باب العمرى، حديث رقم ١٦٢٥ ص٦٦٤.

ثالثاً: العُمران الخلدوني

التقط ابن خلدون المصطلح القرآني: العمران، وأدرك قدراً كبيراً من "فقه العُمران"، وانتبه إلى كثير من دلالاته التي لم يدركها مَنْ سبقه، وربّما لم يَبْنِ عليها كثيرٌ ممن لحق به. فابن خلدون (توفي عام ٨٠٨هـ) كتب كتاب التاريخ المعروف باسم: "كتاب العِبَر وديوان المبتدأ والخبر في أخبار العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر"، وكتب مقدمته لهذا التاريخ، فعُرِفت "المقدمة" أكثر مما عرف "كتاب العِبَر" ومع أنَّها مقدمة لكتاب في التاريخ، وهو عِلْم معروفٌ في عهده وفي عهود سابقة على عهده، فإنها تضمنت فصولاً متنوعة يجعلها الباحثون الآن من موضوعات العلوم الاجتماعية والإنسانية، التي نشأت في صورة علوم مستقلة، بعد ابن خلدون بكثير.

وقد ذهبت الدراسات الخلدونية مذاهب شتى في تقويم ما كتبه ابن خلدون في المقدمة، فالباحثون عدّوه منشئاً لعلم الاجتماع ولعلم السياسة ولعلم التربية ولعلم الاقتصاد ولكثير من العلوم الأخرى.[١] إلا أنَّ المؤرخ البريطاني أرنولد توينبي ربَّما كان أكثر دقة حين جعل مقدمة ابن خلدون فلسفة للتاريخ، وأنَّها عمل إبداعي غير مسبوق، فكتب يقول: "لقد كان ابن خلدون نقطة الضوء الوحيدة في سماء زمانه، بل الشخصية المبدعة الوحيدة في تاريخ الحضارات... ويبدو أنه كان في اختياره لحقل نشاطه الفكري غير متأثر بمن سبقه، ... وقد تصور وأنشأ في عمله في كتاب المقدمة فلسفة للتاريخ هي دون شك أعظم عمل من نوعه تمكَّن أيُّ عقل إنجازه في أيِّ زمان وأيِّ مكان."[٢]

وقد أخذ ابن خلدون المفهوم القرآني للعُمران، وجعله عَلَماً على عِلْم جديد يدرس حياة الناس وما يطرأ على هذه الحياة من تحولات وتبدلات،

(١) ملكاوي، فتحي حسن. "ملحوظات حول الدراسات الخلدونية"، **إسلامية المعرفة**، ع٥٠، خريف ٢٠٠٧م، ص٧-١٥.

(٢) Tonybee, Arnold. *A Study of History: The Growths of Civilizations*. New York: Oxford University Press, 1962, Vol. 3, p. 321-328.

وما ينشأ فيها من علاقات ومؤسسات، سمَّاه علمَ العُمران البشري، أو علم الاجتماع، أو حالة الحضارة. وقد أعلن ابن خلدون ولادة علم العمران، وتخطيط منهجيته، داعياً من يأتي بعد لاستكمال البحث في موضوعاته وقضاياه فهو يقول: "...عَزَمْنا أنْ نقبض العِنان عن القوْل في هذا الكتاب الأول الذي هو طبيعة العمران وما يعرض فيه ... ولعلَّ من يأتي بَعدنا ممن يؤيده الله بفكر صحيح وعلم مبين يغُوصُ من مسائِله على أكثر ما كتبنا، فليس على مستنبط الفنِّ إحصاء مسائله، وإنما عليه تعيين موضوع العلم، وتنويع فصوله، وما يتكلم فيه، والمتأخرون يُلحِقون المسائل من بعده شيئاً فشيئاً إلى أن يكمل. واللهُ يعلم وأنتم لا تعلمون."[1]

في مقدمة "المقدمة" ينتقل ابن خلدون من التاريخ -الذي هو خبر- إلى موضوع التاريخ وهو عمران العالَم وحالات هذا العالم: "اعلم أنَّه لما كانت حقيقة التاريخ أنَّه خبرٌ عن الاجتماع الإنساني الذي هو عِمران العالَم، وما يعرض لطبيعة ذلك العُمران من الأحوال، مثل التوحُّش والتآنس والعصبيات وأصناف التغلُّبات للبشر بعضهم على بعض، وما ينشأ عن ذلك من المُلْك والدول ومراتبها، وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع، وسائر ما يحدث في ذلك العمران بطبيعته من الأحوال..."[2]

والهدف من هذا العلم هو تحويل غاية المؤرخ من سرد الأخبار، وتصيد الغرائب، إلى وضع قانون: "في تمييز الحق من الباطل في الأخبار والصدق من الكذب بوجه برهاني لا مدخل للشك فيه." ومن ثم إنشاء علم جديد يستقل بموضوعاته عن التاريخ، ويستقل كذلك عن العلوم الأخرى. وفي هذا يقول ابن خلدون: "وكأن هذا علم مستقل بنفسه، فإنَّه ذو موضوع وهو العمران البشري،

---

(١) ابن خلدون، عبد الرحمن. **مقدمة ابن خلدون**. تحقيق: علي عبد الواحد وافي، القاهرة: مكتبة نهضة مصر، ج٣، ص١٢١٣.

(٢) المرجع السابق، ج١، ص٣٢٩.

والاجتماع الإنساني، وذو مسائل، وهي بيان ما يلحقه من العوارض والأحوال لذاته، واحدة بعد أخرى، وهذا شأن كل علم من العلوم وضعيًّا كان أو عقلياً."[1]

وربّما كان للظروف المتقلبة والمآسي المتكررة التي شهدها ابن خلدون في حياته أثر في رغبته في خلوة "في قلعة ابن سلامة" تمكنه من التدبُّر والتفكُّر، ولِيَكْتبَ تجربتَه وخبرتَه عمّا آلت إليه أحوال الأمة لذلك العهد، ويستنبط من ذلك بعض قوانين العمران البشري، في مسائل سياسية واجتماعية متعددة، شملت النفس الإنسانية، وتاريخ الأمم والحضارات، والبيئة الجغرافية، وشؤون الملك والسياسة، ومسائل الاقتصاد والثروة، ومبادئ الاجتماع البشري، ومناهج التربية، وغير ذلك.

ويبدو أنَّ سنَّة الله في حياة المجتمعات البشرية تقتضي أنْ يرافق العمران البشري ركونٌ إلى الدعة والانغماس في الترف، فيؤدي ذلك إلى خلل في أسباب القوة والتماسك، ومن ثم في ضعف الأمة المترفة وانهيار حضارتها لتخْلُفَها بعد ذلك أمَّةٌ أخرى أكثر فتُوَّة وأشدّ عصبية وتماسكاً، فتأخذ دورتها فترة من الزمن، ثم تدول دولتها: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١٤٠]. ولأجل ذلك فإنَّ الدلالة التي أعطاها ابن خلدون للحضارة والعمران البشري ترتبط بالوصول إلى مرحلة الضعف وبداية الانهيار، أكثر مما ترتبط بالدلالة السائدة، التي تعطي للحضارة والعمران معنى التقدم والرقي.

وقد تميَّز ابن خلدون في فهمه للتاريخ والاجتماع البشري، وعلاقته بالكون الطبيعي وسنن الوجود، بمزايا واضحة تماماً، بالقياس إلى غيره ممن عالج هذه الموضوعات. فالمجتمع الإنساني كان موضع تأمل ونظر من مفكرين آخرين قبل ابن خلدون، مثل أفلاطون وأرسطو والفارابي وأوغسطين، لكن التصور النظري الفلسفي الذي طغى على جهودهم، لم يقترب من الوقائع والطبائع الاجتماعية في حياة البشر، لأنَّ همَّهُم كان همّاً غائياً معيارياً يحدد ما يجب أن يكون عليه

---

(١) المرجع السابق، ج١، ص٣٣٢.

المجتمع. وفي المقابل فإنَّ ابن خلدون قد اعتمد في دراسته للمجتمع على ما يحدث في المجتمع فعلاً، بحكم خبرته العملية في المجتمع، مع أنّه لم يغفل عما يجب أن يكون عليه المجتمع في الصورة الغائية المعيارية، ولكن ليس في إطار نظرة فلسفية مجردة، بل في إطار الهدي الإلهي، كما فهمه من القرآن الكريم. لذلك فإنّه جمع بين التقرير الوصفي والتحديد المعياري، وتحدَّث عن عالم الشهادة دون أن يغفل عالم الغيب، واعتمد العقل دون أن ينسى النقل.

لكن الميزة الأكثر أهمية في فهم ابن خلدون للعمران البشري تأكيده المتكرر ألا سبيل إلى فهم طبيعة العمران دون فهم قوانين الاجتماع الإنساني وطبائع هذا الاجتماع، لأنَّ ما يحدث فعلاً إنما يكون وفق سنن تشبه سنن الكون الأخرى، التي تجري في عالم الأشياء المادية، لذلك لا بد من دراسة الأحداث والوقائع الاجتماعية وفق منهج منظم، لا يتجاوز الوقائع والطبائع. "فالقانون في تمييز الحق من الباطل في الأخبار بالإمكان والاستحالة، أن ننظر في الاجتماع البشري الذي هو العمران، ونميِّزَ ما يلحقه من الأحوال لذاته وبمقتضى طبعه..."(١) ولذلك فإنَّ ابن خلدون لَمَّا حدَّد موضوع علم العمران ومسائله، ختم هذا التحديد قائلاً: "وهذا شأن كل علم من العلوم، وضعياً كان أو عقلياً."(٢)

ولعلَّ هذه دعوة تتوجه إلى دعاة الإصلاح والتغيير في مجتمعات المسلمين اليوم بضرورة دراسة قوانين التغيير في العقول والنفوس، وفي الواقع الاجتماعي، ومن ثَمَّ يتمَّ التخطيط لجهود الإصلاح، ووضع برامجها ونشاطاتها بناءً على علم ومعرفة بتلك القوانين. فتغيير الواقع لا يتحقق بتجارب شخصية محدودة، أو بخبرات بادي الرأي ممن تدفع بهم الظروف إلى مقدمة الصفوف، أو برفع شعارات دون برامج علمية وعملية، مهما كانت هذه الشعارات صحيحة في ذاتها ودلالاتها. كذلك فإنَّ تغيير الواقع لا يتحقق بتمنيات المخلصين في قلوبهم مهما ارْتَجَّت هذه القلوب، ولا بدعوات المؤمنين في صلواتهم، مهما ارتفعت أصواتهم بالدعاء!

---

(١) المرجع السابق، ج١، ص٣٣٢.

(٢) المرجع السابق، ص٣٣٢.

ثم إن ابن خلدون وهو يستنبط علم العمران، لا يفعل ذلك اتباعاً لمن سبقه من أهل العلم أو سيراً على خطاهم، سواءً كانوا من علماء المسلمين أو علماء الأمم الأخرى، وإنَّما يفعل ذلك عن وعي بما أنجزه العلماء قبله في جهودهم لفهم العمران البشري، وأنَّ ما أنجزوه لم يكن كافياً لصياغة القوانين التي بموجبها نفهم آليات التغيير والتحول والتطور في حياة البشر، الأمر الذي تطلَّب منه بذل الجهد والتفرغ "في قلعة ابن سلامة" أربعة أعوام من عمره قضاها في التدبر والتفكر والقراءة والكتابة، حتى أنجز "كتاب العبر" وكتب "المقدمة"، التي تضمنت علم العمران، فكان إنجازه فيه إبداعاً: "مستحدث الصنعة، غريب النزعة، غزير الفائدة، أعْثَرَ عليه البحثُ، وأدّى إليه الغوصُ... وكأنَّه علم مستنبط النشأة، ولعمري لم أقف على الكلام في منحاه لأحد من الخليقة... ونحن قد أَلْـهَمَنا اللهُ إلى ذلك إلهاماً، وأعْثَرَنا على عِلْم جَعَلَنا سِنَّ بَكْرِه وجُهَيْنة خَبَرِه..."(١)

فالمسألة لا تقف عند دراسة ما عُرِف من قوانين التغيير، وإنما تتجاوز ذلك إلى إعمال العقل في تمحيص المعروف منها، واختباره، ومعرفة علاقته بموضوعات البحث ونطاقها في الزمان والمكان. وهو جهد يحتاج إلى مثل عبقرية ابن خلدون في زمانه، وقد يحتاج إلى تآزر كثير من الباحثين، يعملون منفردين، ويعملون معاً في فرق بحثية، فتتصل جهودهم، وتتكامل خبراتهم، لعلّ الله يلهمهم، ما ينتفع به الناس، من تصحيح لمواقفهم، وحل لمشكلاتهم.

ولا تغيب العلاقة بين العمران والحياة في تحليلات ابن خلدون، حياة الأفرد وحياة المجتمعات وحياة الدول، فهو يتحدث عن أركان ثلاثة للعمران البشري على هذه الأرض: الركن الأول هو تقوى الله، وهو حياة للقلب بتزكية النفس من الأهواء والشهوات، والركن الثاني هو السعي في الرزق، وفيه حياة المجتمع بالتعاون والتكافل والتكامل، لأنَّ الإنسان لا يستطيع بمفرده أن يستجمع متطلبات المعيشة والأمن. أما الركن الثالث فهو العدل في الحكم، وهو حياة الدولة بالعصبية واستجماع متطلبات السلطان.

---

(١) المرجع السابق، ج١، ص٣٣٣-٣٣٥.



رابعاً: العمران والحضارة:

جاءت دلالات العمران في القرآن، بما يفيد سُكنى الإنسان في المكان، والعيش فيه، وتعميره، وإصلاحه والاستقرار فيه، وتوظيف طاقاته وإمكاناته، وأداء حق الله سبحانه في إقامة الحياة البشرية وفق مقاصد شرائعه، وهدي أنبيائه، وكذلك جاءت بمعنى عمران جسم الإنسان بالحياة ومرور الوقت في حياته. وقد جعل ابن خلدون من مصطلح العمران نمطاً عاماً لحياة الإنسان، يؤدي فيه وظيفته -دون غيره من الكائنات- في إعمار الأرض، يتعاون فيها أفراده على المعاش البشري وتوفير متطلبات الحياة الاجتماعية التي لا تتحقق إلا بهذا الاجتماع، استجابة لأمر الله سبحانه، الذي يقول: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا

﴿ فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ ﴾ [هود: ٦١] ويقول: ﴿ وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَۗ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٠].

أما الحضارة بالمعنى الاصطلاحي المعاصر، الذي يقوم على جملة من المبادئ التي تحكم سلوك الناس في المجتمع وإنجازاتهم الثقافية والمادية، فلم ترد في القرآن الكريم، وإنما وردت مشتقَّات الفعل الثلاثي (حضر) في عدد من المواقع، بدلالة الحضور والشهود، وهو ضد الغياب. لكن المفهوم الاصطلاحي المعاصر حاضر بصورة مباشرة ضمن دلالات العمران، وبصور غير مباشرة ضمن دلالات الأمة والشهادة والاستخلاف.

ومن المهم أن نؤكد في هذا المقام أنَّ دلالات الحضارة أو العمران الحضاري في رؤية العالم الإسلامية التي تتصف بالتكامل والانسجام لا بد أن تجمع بين البعد المعنوي الذي يعنى بالمبادئ الفكرية، والنظم الإدارية، والعلاقات الاجتماعية، والقيم الأخلاقية، من جهة؛ والبعد المادي الذي يعنى بالتقدم العلمي، والتطور التقاني، والعمران المدني، من جهة أخرى. وأن مقياس الحضارة في الرؤية الإسلامية لا يقتصر على الجهة الأولى دون الثانية.

ولعل في دعاء نبي الله إبراهيم عليه السلام بعد أن أسكن زوجته وابنه في موقع البيت الحرام بمكة ما يشير إلى مقومات العمران البشري وهي: الإنسان الذي يقوم بالعمران، والمكان الذي يقوم عليه العمران، والمبدأ الذي يصون العمران. فهذا الإنسان الطفل هو الذي سوف يسهم في بناء نواة العمران وستكون من ذريته أمة الرسالة الحضارية، أما المكان فهو واد غير ذي زرع لا يسكنه أحد، ويحتاج إلى الرزق المادي من الثمرات، ويحتاج إلى الأمن الذي يتحقق بقدوم الناس وتوجه قلوبهم إلى المكان ومن فيه بالألفة والمحبة والتعاون. أما المبدأ فهو ما سوف تحققه الذرية التي أسكنها في ذلك المكان، وتعمره بإقامة الصلاة، وشكر الله وعبادته: ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

لقد كتب الله سبحانه الإحسان في كل شيء، والإنسان المؤمن يترقى في درجات القرب من الله سبحانه بأنواع من العبادات حتى يبلغ درجة الإحسان، وهي حالة من السمو الأخلاقي، والإنجاز العملي، فخير الناس وأحبهم إلى الله سبحانه هو أنفعهم للناس. ومنْ أحسنُ قولاً من بين الناس ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً. ولِـمَ لا يكون المقياس الإسلامي في التحضر، هو الجمع بين الإيمان والعمل الصالح؟! أليس من العمل الصالح أن ينجز العالم المؤمن منجزات علمية تنفع الناس، منجزات نافعة في الطب والهندسة والإدارة والصناعة والزراعة وغيرها؟!

وإذا كان من أنفع الناس، وأحبهم إلى رسول الله ﷺ، وأقربهم منه مجلسا يوم القيامة، أحاسنهم أخلاقاً، فَلِمَ لا يكون المؤمنُ صاحبَ أخلاق حضارية حسنة، التزاماً بواجبات العمل وأخلاقيات المهنة، ووفاء بالعهود، وتنفيذاً للعقود، وإنجازاً للوعود، وتبصراً بالأمور، وإبداعاً في حل المشكلات وتطوير الممارسات، وفهماً للطبائع والوقائع؟!

وإذا كانت الحضارة في الرؤية المادية هي نتيجة قوانين في التنافس والتسابق العلمي والصناعي والتجاري، وهو تنافس يقوم على إنجازات العقل البشري والمنهج العلمي التجريبي، وأنّ الرؤية الإيمانية تقوم على النظر في أقدار الله سبحانه، وسننه الفطرية في الخلق ونواميسه الإلهية في تدبير العالم، والاعتقاد بأن الأنبياء والرسل كانوا بناة الحضارة الحقيقيين، فإنّ عبقرية ابن خلدون علّمتنا الجمع بين الرؤيتين، وأن الرؤية الأولى متضمنة في الرؤية الثانية، وأن قيام الحضارة والعمران البشري، يتطلب بالضرورة فقه السنن والنواميس والقوانين التي تسيِّر الطبائع البشرية وتحكم الوقائع العملية. ألم نتبين مدى الحاجة إلى تحقيق التكامل والتوازن بين الحاجات المادية الحاجات الروحية للإنسان، بصورة يمكنها أن تنقذ الحضارة البشرية المعاصرة من أزماتها المستحكمة، ومن المصير الذي تتجه إليه في غياب هذا التوازن؟!

وعندما كانت الرؤية الكونية والحوافز الإيمانية هي التي تدفع الأمة الإسلامية إلى الإنجاز الحضاري، في الروح والمادة، فإنَّ الأمة أنشأت حضارة متوازنة تجمع المتطلبات المادية والروحية. وكانت فيها الأمة حاضرة في ساحة العالم، وهي الرقم الصعب في علاقات الشعوب والأمم في الأرض يومذاك، وكانت مصدر الريادة في العمران المادي والمعنوي. لكن خللاً قد تسرب إلى رؤيتها وعقيدتها، فانحسرت حضارتها، وتراخى فيها الدافع الإرادي للعمل الحضاري، وبدلاً من حالة الحضور "أو الشهود الحضاري" غابت عن الساحة، فلم تعد حاضرة، ولم تعد مهوى أفئدة المتطلعين إلى الحضارة. ولا يزال هذا الخلل يعوق الأمة اليوم عن الانطلاق من جديد للنهوض الحضاري.[١]

ولم يقصر ابن خلدون العمران على نمط مادي محدد، فللبداوة عمران له خصائص مادية تتناسب مع البيئة المكانية ومتطلبات العيش فيها، وللحضارة كذلك عمران له خصائص مادية أخرى. وفي الحالتين ثمة مكونات معنوية قيمية، هي أفكار ومبادئ تحكم نمط الحياة البشرية. ولذلك فإن الفقه الخلدوني لا يساوي بين الحضارة والعمران، بل يجعل العمران نمط الحياة التي يعيشها المجتمع البشري في الزمان والمكان.[٢] وهذا أقرب إلى الدلالات المباشرة لآيات الاستخلاف

---

(١) النجار، عبد المجيد. "دور الإصلاح العقدي في النهضة الإسلامية"، **إسلامية المعرفة**، ع١، ١٩٩٥م، ص٥٧-٩٤.

(٢) يعبر ابن خلدون عن نمط الحياة باصطلاح خاص به هو "النِّحْلة في المعاش" ويضرب أمثلة تفصيلية على أنواع نحلة المعاش عند البدو، "واجتماعهم إنما هو للتعاون على تحصيله والابتداء بما هو ضروري منه وبسيط قبل الحاجي والكمالي، فمنهم من يستعمل الفلح من الغراسة والزراعة، ومنهم من ينتحل القيام على الحيوان من الغنم والبقر والمعز والنحل والدول لنتاجها واستخراج فضلاتها... وكان حينئذ اجتماعهم وتعاونهم في حاجاتهم ومعاشهم وعمرانهم من القوت والكن والدفاءة إنما هو بالمقدار الذي يحفظ الحياة ويحصل بُلْغة العيش من غير مزيد عليه، للعجز عما وراء ذلك." ثم يقول "قد قدمنا في الفصل قبله أن أهل البدو هم المنتحلون للمعاش الطبيعي من الفلح والقيام على الأنعام، وأنهم مقتصرون على الضروري من الأقوات والملابس والمساكن وسائر الأحوال والعوائد، ومقصرون عما فوق ذلك من حاجيٍّ أو كمالي." انظر:
- ابن خلدون، **المقدمة**، مرجع سابق، ص٤٦٧-٤٧٠.

والتمكين في القرآن الكريم التي تجعل العمران هو المقصد العام من مقاصد الحق من الخلق، وهو مقصد يدور مع المجتمع البشري حيث دار، ويتحقق بصورة مستقلة عن المستوى الحضاري، فليس ضرورياً أن يرتبط معنى العمران بالتقدم المادي والتطور التقاني، الذين يترقيان بالمجتمع مع ترقيه في مراتب الحضارة.

لكن ذلك لا يعني التقليل من شأن الحضارة، فالحضارة في الفقه الخلدوني هي غاية العمران؛ أي إن اتجاه التطور في العمران هو الانتقال من البداوة إلى الحضارة،[1] فالتحضر ظاهرة طبيعية نامية، يرافقها تطور في صور العمران وأشيائِه المادية، وأدواتِه التقانية، وعلاقاتِه الاجتماعية، ونظمِه الإدارية والسياسية. ولعلّ الصورة التي يرسمها ابن خلدون للحضارة تميل إلى الجانب السلبي بما يرافقها من أسباب الترف والرفاه، "وأهل الحضر لكثرة ما يعانون من فنون الملاذ وعوائد الترف والإقبال على الدنيا والعكوف على شهواتهم منها، قد تلوثت نفوسهم بكثير من مذمومات الخلق والشر، وبعدت عليهم طرق الخير ومسالكه بقدر ما حصل لهم من ذلك... وقد يتوضح فيما بعد أن الحضارة هي نهاية العمران وخروجه إلى الفساد."[2]

ثم يتوسع في بيان علاقة العمران بالحضارة فيخصص فصلاً بعنوان: "فصل في أن الحضارة غاية العمران ونهاية لعمره وأنها مؤذنة بفساده" يبين فيه: "أن الحضارة غاية للبداوة، وأن العمران كله من بداوة وحضارة وملك وسوقة له عمر محسوس، كما أن للشخص الواحد من أشخاص المكونات عمراً محسوساً ... فلْتَعْلَم أن الحضارة في العمران كذلك، لأنه غاية لا مزيد وراءها، وذلك

---

(١) يقول ابن خلدون: "ومما يشهد لنا أن البدو أصل للحضر ومتقدم عليه، وأنا إذا فتشنا أهل مصر من الأمصار وجدنا أَوَّلِيَّةَ أكثرهم من أهل البدو الذين بناحية ذلك المصر، وفي قراه، وأنهم أيسروا (أي أصبحوا ذوي يسار وغنى) فسكنوا المصر وعدلوا إلى الدعة والترف الذي في الحضر. وذلك يدل على أن أحوال الحضارة ناشئة عن أحوال البداوة وأنها أصل لها، فتفهَّمْه." انظر:
- ابن خلدون، **المقدمة**، مرجع سابق، ج٢، ص٤٧٢.

(٢) ابن خلدون، **المقدمة**، مرجع سابق، ج٢، ص٤٧٣.

أن الترف والنعمة إذا حصلا لأهل العمران دعاهم بطبعه إلى مذاهب الحضارة والتخلق بعوائدها. والحضارة كما علمت هي التفنن في الترف واستجادة أحواله والكلف بالصنائع التي تؤنق من أصنافه وسائر فنونه من الصنائع المهيئة للمطابخ أو الملابس أو المباني أو الفرش أو الآنية ولسائر أحوال المنزل... وإذا بلغ التأنق في هذه الأحوال المنزلية الغاية تبعه طاعة الشهوات فتتلون النفس من تلك العوائد بألوان كثيرة لا يستقيم حالها معها في دينها ولا دنياها... وبيانه أن المصر بالتفنن في الحضارة تعظم نفقات أهله، والحضارة تتفاوت بتفاوت العمران، فمتى كان العمران أكثر كانت الحضارة أكمل. وقد كنا قدمنا أن المصر الكثير العمران يختص بالغلاء في أسواقه وأسعار حاجته ثم تزيدها المكوس غلاء."(١)

ومع ذلك فإنَّ العمران الحق سواءً كان عمران البادية أو عمران الحضارة هو العمران القائم على طاعة الله والإخلاص في عبادته، وفعل الإصلاح في الأرض بصوره وحالاته، من حرية وعدل ومساواة، ولن يدوم عمران يقوم على الظلم والفساد والتخريب. ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٦]، ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ﴾ [المائدة: ٦٦] ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [يونس: ٩٨]. وقد أقامت أمم متعددة أشكالاً من العمران، فقَوْم عادٍ الذين بنوا إرم التي لم يخلق مثلها في البلاد، وقومُ ثمود الذين جابوا الصخر بالواد، وفرعون الذي بنى الأوتاد، لكن هؤلاء الأقوام طغوا في البلاد وأكثروا فيها الفساد، واستكبروا في الأرض بغير الحق، فما نفعهم عمرانُهم المادي، وحقَّ عليهم التدمير والعذاب في الدنيا قبل الآخرة.

لقد طرحت جهود الإصلاح التي تحاول تمكين الأمة من استعادة موقعها الحضاري في عالم اليوم سؤالاً أساسياً، عن الطريقة التي يمكنها تحقيق ذلك،

---

(١) المرجع السابق، ج٢، ص٨١٧-٨١٨.

وكان السؤال على الوجه الآتي: هل نحتاج في البناء الحضاري الإسلامي المنشود أن نتقدم بمجتمعاتِنا لتلحق بالحضارة المعاصرة، التي تقوم على العلم والصناعة والتنافس في الكسب المادي وتكديس المنجزات العمرانية، وإشباع نَهَم الإنسان الاستهلاكي المعاصر في المأكل والملبس والمسكن، وأدوات الترفيه والتيسير والتواصل وغيرها؟ أم إن المطلوب هو هدم هذه الحضارة، من أجل أن نبني على أنقاضها حضارة جديدة؟ وإلى أي درجة يمكن أن تتحقق مهمة اللحاق الأولى، أو مهمة الهدم الثانية؟

وقد توزعت كثير من الإجابات على الاحتمالين. لكن الذي يبدو لكاتب هذه السطور أنَّ مهمة اللحاق أمر متعذر، فضلاً عن كونها أمراً غير مطلوب. أما فكرة الهدم فهي تجربة معروفة في التاريخ الغربي، فقد قامت جهود التنوير والحداثة على هدم المبادئ التي كانت تحكم المجتمع على أساس مرجعية دينية مسيحية، وإحلال مبادئ عقلية علمية بدلاً منها، لكنها أخطأت في هدم كل مرجعية دينية بعد ذلك. وها هي أفكار ما بعد الحداثة تحاول أن تستدرك على مقولات الحداثة وتصحح بعض ما قصرت فيه، لكنها تخطئ اليوم في هدم المنجزات الإيجابية للحداثة من خلال ما تطرحه من نظريات تحاول كذلك أن تسقط العقل والعلم والإنسان، بما تقدمه من بدائل فوضوية عدمية.

ولعلَّ البديل عن مهمة اللحاق ومهمة الهدم، هو قيام الأمة الإسلامية بدور التصحيح والتصويب والترشيد وتقديم رؤية جديدة للعالم؛ رؤية تفتقدها الحضارة الإنسانية المعاصرة؛ رؤية تسهم في إنقاذ الإنسان المعاصر من صور المعاناة التي يعيشها، وفي إنقاذ حضارته المعاصرة من المصير الذي ربما تنتهي إليه؛ رؤية تقوم على التكامل المعرفي والأخلاقي، والتوازن المادي والروحي؛ رؤية للعالم توضح الدور التدميري لرؤية العالم التي تتبناها المؤسسات الاقتصادية والتجارية والمالية، والمنظمات الدولية، والدول الكبرى المتحكمة في مصير العالم اليوم. وهذه مسألة تعيد بناء الجانب الثقافي المعنوي من

الحضارة المعاصرة، ولكنها في الوقت نفسه لا تحرم الإنسان المعاصر من الاستمرار في الاستمتاع بمعظم الإنجازات المادية والمدنية للحضارة المعاصرة بصورة تتصف بالرشد والحكمة والرشد.

المسألة هنا ليست صراعاً بين عالم الأشياء وعالم الأفكار، فرؤية العالم الإسلامية لا تقلل من شأن عالم الأشياء ولا تعاديه، ولكنها لا تسمح له أن يستبد بحياة الإنسان والمجتمع، ويسقط من حسابه عالم القيم والأفكار التي تسهم في تحقيق القدر المطلوب من التوازن، ويوظف فيه الإنسان طاقاته في الإنتاج والبناء وتحقيق الحياة الكريمة، ويوفر فيه كذلك متطلبات السعادة النفسية للفرد وعلاقات التعارف والتعاون والتكامل بين الأفراد والجماعات.

إذا كان معظم الأمم في العالم المعاصر تعيش في ضلال وضنك نفسي ومادي، من خلال ثقافة التنافس والتسابق والاستغلال والاحتكار، فإن مهمة الأمة الإسلامية هي ترسيخ ثقافة التعارف والتعاون والتكامل والتكافل بين البشر. وتحرص فيه الأمة الإسلامية على أن تكون المحور الذي يبنى حوله مجتمع إنساني يسعد أفراده في دنياهم، بينما تترك حسابهم في أخراهم إلى الله سبحانه. وقد يتعذر على الأمة الإسلامية أن تقوم بهذا الدور دون تحقيق أمرين مهمين: الأول أن تبني في مجتمعاتها نماذج من التكوين الحضاري المتكامل والمتوازن المنشود، ليرى الناس حقيقة ما تدعو إليه. والثاني أن تتولى مهمة التحاور والتواصل والتعاون في المصالح المشتركة، فتُعطي وتأخذ، وتُعلِّم وتَتَعلَّم، وتُعين وتستعين. ولعلَّها بذلك تبني فقهاً جديداً للحضارة والعمران.

خامساً: العمران والسياسة والدولة

عرضنا في البند السابق علاقة العمران بالحضارة، ونوهنا بآراء ابن خلدون في علاقة المفهومين ببعضهما بعضاً. ثم أشرنا إلى دلالة المصطلح المعاصر للحضارة ببعديها المعنوي والمادي. وفي هذا البند سوف نبين كيف أنَّ العمران

قيمةٌ مرجعية في تحديد طبيعة الدولة وسياساتها الاقتصادية والاجتماعية والقانونية. فالعمران لا يتحقق إلا في مجتمع بشري منظم في صورة دولة ذات أركان ومكونات، ولا تقوم الدولة دون سياسة تنظِّم أمورها. وسوف نحاول توظيف آراء ابن خلدون وابن الأزرق في بيان علاقة العمران بالدولة لما لهذه الآراء من علاقة وثيقة بأحوال الدول التي نعيش فيها في عالمنا الإسلامي المعاصر، على وجه الخصوص.

يرى ابن الأزرق "أن العمران البشري لا بد له من سياسة ينتظم بها أمره."[(1)] ويتجاوز معنى السياسية -في اصطلاح ابن الأزرق ومِنْ قَبْلِهِ ابن خلدون- فِعْلَ التنظيم والإدارة والتدبير، ليصبح المصطلح معبِّراً عن نظام الحكم في الدولة. ولذلك نجد أنَّ ابنَ خلدون وابنَ الأزرق يتحدثان عن الدولة بالمفهوم السياسي المعاصر، وعن المـُلْك بمفهوم رأس الدولة، وعن السياسية بمفهوم النظام المتَّبع في إدراة أمور الدولة. ويخصصُ ابنُ خلدون فصولاً متعددة في كتاب المقدمة يجعل عناوينها عن الدولة والملك. مثل: "فصل في أن الدولة لها أعمار طبيعية كما للأشخاص"، "فصل في انتقال الدولة من البداوة إلى الحضارة"، "فصل في أطوار الدولة واختلاف أحوالها وخلق أهلها باختلاف الأطوار"، "فصل في أن الملك والدولة العامة إنما يحصلان بالقبيل والعصبية"، "فصل في حقيقة الملك وأصنافه"، "فصل في أن من طبيعة الملك الانفراد بالمجد"، إلخ.

فالدولة تعبيرٌ عن النظام العام بعناصره ومكوناته، التي تتمثل في رأس النظام الحاكم: خليفة أو ملكاً أو رئيساً أو سلطاناً، وفي طبيعة النظام الاقتصادي وجمع المال وإنفاقه، وفي تنظيم حركة الإنتاج والتجارة، وفي النظام القانوني المسؤول عن حفظ حقوق الناس، وفض الخصومات، وفي غير ذلك من أنظمة المجتمع، فضلاً عن حدود الأرض التي يسكنها المواطنون في هذه الدولة، والمواطنين أنفسهم.

---

(١) ابن الأزرق، أبو عبدالله محمد الأندلسي. **بدائع السلك في طبائع الملك**. دراسة وتحقيق: محمد بن عبد الكريم، تونس: الدار العربية للكتاب، (د.ت.)، ج١، ص١١٦.

ويقيم ابن خلدون تكافؤاً بين العمران والدولة، فيقول: "وذلك أن الدولة والمُلْك صورة الخليفة والعمران، وكلّها مادَّة لها من الرعايا والأمصار وسائر الأحوال."[(١)] ويأخذ ابن الأزرق مفهوم التكافؤ الخلدوني هذا فيقول: "أما بعد، فإن من أشهر ما عُلِم عقلاً وسمعاً، وجمع فيه شروط القبول لبرهان المقبول جمعاً، أنَّ المُلْك صورةُ العمران وقرارُه، الذي تشتمل عليه فوائد الاحتياج إليه وأسرارُه."[(٢)] ثم يقول: "الدولة والملك للعمران بمنزلة الصورة للمادة، وهو الشكل الحافظ لنوعه، لوجودها، وانفكاك أحدهما عن الآخر غير ممكن على ما قرر في الحكمة. فالدولة دون العمران لا تتصور، والعمران دونها متعذر،كما تقدم. وحينئذ فاختلال أحدهما مستلزم لاختلال الآخر كما أن عدمه مؤثر في عدمه."[(٣)]

ويعطي ابن خلدون أهمية كبيرة لنظام المال في عمران الدولة، فيقول: "وأموالُ الجباية عائدة عليهم، ويسارُهم في الغالب من أسواقهم ومتاجرهم. وإذا أفاض السلطان عطاءه وأمواله في أهلها انبثت فيهم ورجعت إليه، ثم إليه منه، فهي ذاهبة عنهم في الجباية والخراج، عائدة عليهم في العطاء. فعلى نسبة حال الدولة يكون يسار الرعايا، وعلى نسبة يسار الرعايا وكثرتهم يكون مال الدولة. وأصله كله العمران وكثرته. فاعتبر ذلك وتأمَّلْه في الدول تجدْهُ، والله يحكم لا معقب لحكمه."[(٤)]

ويؤكد ابن الأزرق أهمية المال في مصير العمران، ويبين كيف يكثر المال وكيف يقلُّ، وعلاقة ذلك بطبيعة نظام الحكم والسياسة. ففي سبب كثرة المال وارتفاع العمران، يقول: "سبب كثرة المال: وحاصله أمور، أحدها وهو أصله العام: كثرة العمران المحفوظ برعاية العدل، فقد قالوا: المال بالخراج، والخراج

(١) ابن خلدون، **المقدمة**، مرجع سابق، ج٢، ص٨١٧.

(٢) ابن الأزرق، **بدائع السلك**، مرجع سابق، ج١، ص٥٨.

(٣) المرجع السابق، ج١، ص٢٢٣.

(٤) ابن خلدون، **المقدمة**، مرجع سابق، ج٢، ص٨١٧.

بالعمارة، والعمارة بالعدل."[1] ثم يبين سبب نقص المال بعد الكثرة وانهيار العمران، فيقول: "سبب نقصه بعد الكثرة، وحاصله العدول عن العدل... وآفات طبيعية، تكفي الواحدة منها في ذلك، وأولى إذا اجتمعت. الآفة الأولى: تكثير الوظائف، ...، والآفة الثانية: ضرب المكوس،...، والآفة الثالثة: تجارة السلطان... لا خفاء عند ثبوت هذه الأمور أن تجارة السلطان تؤدي إلى ضرر الرعية، وفساد الجباية، وأنها تؤول بآخره إلى خراب العمران، ونفاد الدولة. ومن ثم ورد النهي عنها مصرحاً فيه بإفضائها لهذا المحذور، فعن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أنه كتب لبعض عماله: إن تجارة الولاة مفسدة، وللرعية مهلكة، فامنع نفسك ومَن قِبَلَك عن ذلك."[2]

ويخصص ابن خلدون فصلاً بعنوان: "فصل في أن التجارة من السلطان مضرة بالرعايا مفسدة للجباية." فيقول: "واعلم أن السلطان لاي يُنْمِي ماله ولا يدرُّ موجوده إلا الجبايةُ... وأما غير ذلك من تجارة أو فلح فإنما هو مضرة عاجلة للرعايا وفساد للجباية ونقص للعمارة." ويشير ابن خلدون إلى دور بطانة السوء المحيطة بالحكام، في تزيين التجارة لهم، فيقول: "وقد ينتهي الحال بهؤلاء المنسلخين للتجارة والفلاحة من الأمراء والمتغلبين في البلدان أنهم يتعرضون لشراء الغلات والسلع من أربابها الواردين على بلدهم ويفرضون لذلك من الثمن ما يشاءون ويبيعونها في وقتها لمن تحت أيديهم من الرعايا بما يفرضون من الثمن، وهذه أشد من الأولى، وأقرب إلى فساد الرعية واختلال أحوالهم... فيحمل السلطانَ على ذلك، ويضرب معه بسهم لنفسه، ليحصل على غرضه من جمع المال سريعاً، سيما مع ما يحصل له من التجارة بلا مغرم ولا مكس."[3]

ويبين ابن خلدون كذلك أن التجار والفلاحين إذا شعروا بالغبن وعدم القدرة على منافسة الحكومة والسلطان في ميادين التجارة والعمل، يقعدون عن تثمير

(١) ابن الأزرق، بدائع السلك، مرجع سابق، ج١، ص٢١١.

(٢) المرجع السابق، ج١، ص ٢١٢-٢١٥.

(٣) ابن خلدون، المقدمة، مرجع سابق، ج٢، ص٦٩٣.

أموالهم بالفلاحة والتجارة، فتقل الجباية، وتختل الدولة بفساد العمران. وربما ينطبق ذلك على تجارة القطاع العام، في الحياة المعاصرة، كما ينطبق على تجارة الحكام وأصحاب النفوذ في الدولة. ويعلق على عبد الواحد وافي محقق كتاب مقدمة ابن خلدون على ذلك بالقول: "يتفق ما يراه ابن خلدون في صدد الأضرار المترتبة على دخول الحكومة مشترية في السوق وعلى اشتغالها بالتجارة أو احتكارها لبعض الأصناف واعتبار ذلك ضرائب غير مباشرة على المستهلكين... يتفق ذلك مع ما يراه كثير من المحدثين من علماء الاقتصاد السياسي. وقد علّله ابن خلدون بالعلل نفسها التي نراها في أحدث مؤلفات الاقتصاد السياسي."[1]

وينقل ابن الأزرق عن أبي منصور الثعالبي قوله: "إن الملك إذا كثرت أمواله بما يأخذ من رعيته كان كمن يعمر سطح بيته بما يقتلع من قواعد بنيانه."(!)[2]

وكما هي أهمية المال وطريقة تداوله في عمران الدولة، كذلك هي أهمية العدل. فالعدل أساس الملك كما تقول الحكمة السائرة. على أن أكثر ما يغيب العدل في الدولة إنما يتعلق بالأموال، والممتلكات التي تكون في أيدي الناس، فيقوم الظلمة باغتصابها منهم. فيقع النقص في العمران، وتنتقل الدولة إلى الخراب. يقول ابن خلدون: "المراد من هذا أن حصول النقص في العمران عن الظلم والعدوان أمر واقع لا بد منه، لما قدمناه، ووباله عائد على الدول. ولا تحسبن الظلم إنما هو أخذ المال أو الملك من يد مالكه من غير عوض ولا سبب، كما هو المشهور، بل الظلم أعم من ذلك، وكل من أخذ ملك أحد أو غصبه في عمله أو طالبه بغير حق أو فرض عليه حقاً لم يفرضه الشرع فقد ظلمه، فجباة الأموال بغير حقها ظلمة، والمعتدون عليها ظلمة، والمنتهبون لها ظلمة،

---

(١) ابن خلدون، **المقدمة**، مرجع سابق، هامش المحقق رقم ٩١٣، ص٦٩٣. ويوضح المحقق ذلك في أحد كتبه، انظر:

- وافي، علي عبد الواحد. **الاقتصاد السياسي**. القاهرة: المطبعة السلفية، ط٣، ١٩٣٩م، فصل "المنافسة الحرة" ص١٧٦-١٨٢.

(٢) ابن الأزرق، **بدائع السلك**، مرجع سابق، ج١، ص٢٢٦.

والمانعون لحقوق الناس ظلمة، وغصاب الأملاك على العموم ظلمة، ووبال ذلك عائد على الدولة بخراب العمران، الذي هو مادتها لإذهابه الآمال من أهله. واعلم أن هذه هي الحكمة المقصودة للشارع في تحريم الظلم، وهو ما ينشأ عنه من فساد العمران وخرابه."(1)

وينقل ابن خلدون عن المسعودي ما رواه في أخبار الفرس عن الموبذان صاحب الدين عندهم، وهو يعظ ملكهم بهرام: "أيها الملك: إنَّ الملك لا يتم عزه إلا بالشريعة، والقيام له بطاعته، والتصرف تحت أمره ونهيه، ولا قوام للشريعة إلا بالملك، ولا عز للملِك إلا بالرجال، ولا قوام للرجال إلا بالمال، ولا سبيل إلى المال إلا بالعمارة، ولا سبيل للعمارة إلا بالعدل." ويبين ابن خلدون أن الحكمة المقصودة للشارع في إقامة العدل وتحريم الظلم هو ما ينشأ عن الظلم من فساد العمران وخرابه، وينوه بأن "أدلة ذلك من القرآن والسنة كثير، أكثر من أن يأخذها قانون الضبط والحصر." (2)

وينقل ابن الأزرق عن أرسطو قوله: "العالم بستان، سياجه الدولة، الدولة سلطان تحيا به السنة. السنة سياسة، يسوسها الملك. الملك نظام، يعضده الجند. الجند أعوان، يكفلهم المال. المال رزق تجمعه الرعية. الرعية عبيد يكتنفهم العدل. العدل معروف، وبه قوام العالم."(3)

خاتمة الفصل

العمران في المصطلح القرآني هو عمران الأرض بحياة الإنسان، وعمران حياة الإنسان بالخير والعمل الصالح، والارتقاء بأسباب الحياة ومقوماتها بإنجازات عمرانية مادية ومعنوية. ويتعزز معنى العمران بمعرفة ما يقابله، فهو

---

(1) ابن خلدون، **المقدمة**، مرجع سابق، ج٢، ص٦٩٩.

(2) المرجع السابق، ج٢، ص٦٩٨-٧٠٠.

(3) ابن الأزرق، **بدائع السلك**، مرجع سابق، ج١، ص٢٣٢.

حياة مقابل الموت، وصلاح وبناء مقابل الخراب والدمار والهلاك، وكذلك يتعزز معنى العمران بمعرفة الأصل الذي يتفرع عنه، فالإيمان -عقلاً وقلباً، وإقامة الحياة على أساس الهدى عملاً وتطبيقاً- هو الأصل، والعمران بالنعيم الدنيوي والأخروي نتيجة: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [المائدة: ٦٥ - ٦٦] ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

وقد تبين لنا أن العمران حالة من الإنجاز المادي والمعنوي ترافق مستويات الحياة في المجتمعات الإنسانية بقطع النظر عن مستوياتها من التحضر، أو الكسب الحضاري. وأن حالة التخلف التي تعاني منها الأمة الإسلامية اليوم، تفرض عليها أن تقدم للحضارة الإنسانية ما تحتاج إليه من رؤية للعالم، ترشد الإنجاز العمراني والحضاري المادي، وتوظفه في تحقيق مقاصد استخلاف الإنسان في الأرض. ونقلنا عن ابن خلدون وابن الأزرق، آراءً في علاقة العمران بالسياسة والدولة، تفيد في فهم صور الظلم الذي يؤذن بانهيار أنظمة الحكم، مما بدأنا نشهد مصداقه منذ مطلع عام (٢٠١١م).

وتأكيد القرآن الكريم أنَّ العمران -بوصفة نتيجة ومنفعة مادية- ربما يكون مدخلاً لبعض النفوس التي تطمع في هذه النتيجة. فإذا كان النظر العقلي والتحليل المنطقي مَدْخليْن لإيمان بعض المؤمنين، فإنَّ الوعْد ببركات السماء والأرض، وبكثرة مصادر الرزق ويُسْرِها ربَّما يكون مغرياً لنفوس أخرى كي تدخل في حظيرة الإيمان، فإذا دخلت جاء الاطمئنان واليقين نتيجة أخرى لحلاوة الإيمان في النفوس. وإنَّنا لنجد القرآن الكريم ينوِّع في خطابه إلى الناس رحمة ورأفة بهم، وأملاً بأن ينتفع الجميع؛ ذلك أنَّ بين الناس فروقاً تستدعي هذا التنوع

في الخطاب؛[1] فينتفع بعضهم بخطاب العقل المجرد، وينتفع بعضهم بخطاب الوجدان والمشاعر، وينتفع بعضهم بخطاب الحواس المادية والمنافع العملية.

ويشكِّل العمران البشري مع توحيد الله الخالق سبحانه، وتزكية حياة الإنسان وتطهيرها وترقيتها على مستوى الأفراد والجماعات والأمة، منظومة قيمية، تحتاج أمتنا إلى اعتمادها مصدراً لسائر القيم الرئيسية والفرعية. ويحتاج النظر في هذه المنظومة القيمية إلى مزيد من الدراسات والبحوث، التي تعمق فهمنا لها، وتشغيلها في استنباط منظومات القيم الفرعية، ونقلها من مجال الدعوة والموعظة ومجال علوم الشريعة، إلى مجال التأسيس للعلوم الإنسانية والاجتماعية والكونية، وتطبيقات هذه العلوم في تطوير مجتمعات المسلمين، لتكون هذه المجتمعات منارات هداية لغيرها من مجتمعات العالَم.

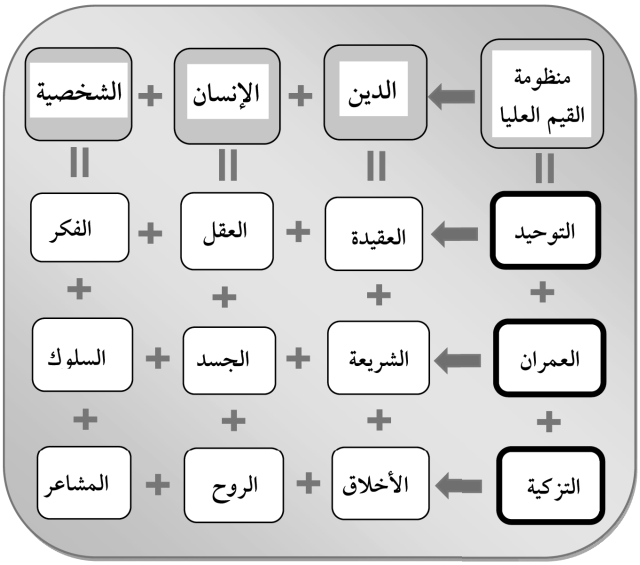
ونكتفي في هذا المقام بالإشارة إلى أنَّ العمران بوصفة قيمة عليا، يسهم في تحديد الإطار المرجعي للمنهجية الإسلامية في التفكير والبحث والسلوك، وعلى هذا الأساس ييسر اشتقاق مجموعة من المبادئ النظرية والعملية التي ترشد سعي العقل المسلم في تطبيق هذه المنهجية، ومن هذه المبادئ على سبيل المثال لا الحصر: مبدأ تكامل متطلبات الحياة الاجتماعية: الزراعة والصناعة والتجارة والاتصال؛ ومبدأ تكامل ميادين المعرفة: علوم الوحي، العلوم الإنسانية، العلوم الطبيعية، والعلوم التقانية، مبدأ تكامل الانتفاع والاستمتاع.

---

(١) النجار، عبد المجيد. "دور الإصلاح العقدي في النهضة الإسلامية"، **إسلامية المعرفة**، ع١، ١٩٩٥م، ص٥٧-٩٤.

خاتمة الكتاب

هكذا نجد أنَّ التوحيدَ قيمةٌ معيارية عليا تختصّ أساساً بالرؤية الإسلامية للإله الخالق المدبِّر، وتُقوَّم بها معتقدات الإنسان، ونتائج هذه المعتقدات وآثارها في فكر الإنسان وحياته؛ وأنّ التزكيةَ قيمةُ معيارية عليا تختصّ بالرؤية الإسلامية للإنسان المخلوق المستخلف، ويُقَوَّمُ بها سلوك الإنسان وجهود ترقيته في مراتب التزكية في جسمه وعقله وقلبه، وفي سلوكه وتصرفاته، وفي ماله وممتلكاته، وفي أنظمته وعلاقاته في حياة الفرد والمجتمع؛ وإنَّ العُمرانَ قيمةٌ معيارية عليا تختصّ بالرؤية الإسلامية لوظيفة الإنسان في الكون المستخلف فيه، وتقاس بها "قيمةُ" الحياة في عُمُر الإنسان الفرد، أو عُمُر الجماعة أو الأمة، وسائر الجهود والإنجازات الحضارية "العُمرانية" للفرد أو الجماعة أو الأمة.



علاقة منظومة القيم العليا بالدين والإنسان والشخصية

لقد جرى التوسع بعض الشيء في الحديث عن التوحيد والتزكية والعمران، للتأكيد على المعالجة القيمية فيما أوردناه من حديث عن هذه المفاهيم القرآنية المركزية الثلاثة. ومع ذلك فقد اكتفينا بإشارات محدودة إلى المعالجات الاعتقادية "الكلامية" في حالة التوحيد، أو العرفانية "الصوفية" في حالة التزكية، أو المدنية "الحضارية" في حالة العمران. ولم نقصد بهذه الإشارات المحدودة التهوين من أهمية هذه المعالجات في المقام المناسب لكل منها، بل إنّنا أكدّنا أكثر من مرّة أن هذه المفاهيم الثلاثة هي قيم عليا، تنبثق عن كل منها قيم فرعية، لها تجلياتها في مجالات العلم والمعرفة، وجوانب السلوك والممارسة، وميادين بناء الحياة وسبل تطويرها.

ونؤكد مرة أخرى أنَّ هذه القيم الثلاث تتَّصل ببعضها اتصالاً وثيقاً، فالتوحيد هو الحقيقة الكبرى في هذا الوجود، وهي حقيقة تستمد قيمتها من ذاتها، وعنها يصدر غيرها من الحقائق. والكون كله خاضع بالفطرة لمتقضيات التوحيد، فإذا أراد الإنسان أن ينسجم مع فطرة الكون، فلا بد له من أن يتزكى، فيتوجه إلى الله وحده بالعبادة، فهو سبحانه "إله الناس" (توحيد العبودية)، مثما هو "رب الناس" (توحيد الربوبية) و"ملك الناس" (توحيد الحاكمية). فالتزكية موضوعها الإنسان المستخلف، وهو موضوع الإصلاح في الواقع الإنساني، وَفقاً لما يهدي إليه الخالق الواحد من رعاية مخلوقاته وتدبير شؤونها. لذلك فإنَّ التزكية هدف العُمران ووسيلته، وهي تدخل في صميم البناء الاجتماعي والعمران البشرى.

وتكوِّن هذه القيم الثلاث معاً مرجعية مقاصدية، لبيان غاية الحق من الخلق، ومنظومة معيارية للقيم التي تنبثق عنها سائر القيم الرئيسة والفرعية في دين الله، ولكن هذه المنظومة القيمية هي، في الوقت نفسه، تعبير عن حقائق الأمور ووقائعها، وليست شيئاً خارجاً عنها أو مفروضاً عليها.

لقد أوضحنا في مقام آخر[1] كيف أن التوحيد والتزكية والعمران هي قيم منهجية عليا، تُرَشِّد العمل المنهجي في مجالاته الثلاثة: التفكير والبحث والسلوك. وقلنا إنَّ من مسوغات الربط بين القيم العليا (الحاكمة) والعمل المنهجي هي:

أولاً: أنّ إعمال منظومة هذه القيم يمثل مبدأً عاماً من مبادئ المنهجية الإسلامية؛

وثانياً: أنَّ هذه القيم هي معايير وضوابط حاكمة لسائر المبادئ الأخرى للمنهجية، سواءً في مستوياتها الفكرية النظرية والاعتقادية العامة، أو في مستوياتها العملية الإجرائية للتفكير والبحث والسلوك؛

وثالثاً: أنَّ هذا الربط يفيد في توسيع دائرة اشتغال ما يسمى أخلاقيات المنهج العلمي في البحث، وربطها بغايات المنهجية الإسلامية العامة ووسائلها.

ولعلَّ من وجوه البحث في القيم، النظر في قيمة الخاتمة التي يكتبها المؤلف أو الباحث في نهاية بحثه، ذلك أن من أهم عناصر الخاتمة التي تعطيها مزيداً من القيمة الباقية، ما يَعُدُّه الباحث مقدمةً لبحوث ومؤلفات أخرى، تكون مؤشرات على مسائل لم يتمكن من إيفائها حقّها، فأنّى يمكن للإنسان أن يختم القول والبحث في أي أمر من الأمور؟! لذلك فإنَّ مما يلزم التفصيل في شأن هذا البحث بيان كيفية استدعاء فئات القيم المشتقة من منظومة القيم العليا الثلاث، وطريقة الامتداد والتواصل بين كل قيمة منها وما يتفرع عنها من قيم فرعية. ومن الموضوعات التي يمكن تناولها كذلك اختبار مدى كفاية منظومة القيم العليا في الاستجابة لمتطلبات التكوين القيمي في جهود النهوض الحضاري الإسلامي المعاصر، وبيان كفايتها كذلك في بناء المكون القيمي اللازم لترشيد الحضارة الإنسانية المعاصرة، واستنقاذها من المصير الذي يتهددها إن استمر غياب هذا المكون القيمي من بنيتها المادية والمعنوية.

---

(١) ملكاوي، فتحي حسن. **منهجية التكامل المعرفي**، هيرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ٢٠١١م، ص٢٥٠.

بقي أن نؤكِّد ما أشرنا إليه في مقدمة الكتاب أنَّ باب البحث في منظومة القيم العليا يبقى مفتوحاً لمزيد من البيان والإيضاح، والمراجعة والاستدراك. ومن ذلك حاجة مثل هذه المعالجات التنظيرية، إلى صياغة المواقف التطبيقية، وضرب الأمثلة العملية، التي تؤدي وظائفَ تربوية، وتخدم أغراضاً تعليمية. ولعلّ الله سبحانه أن ييسر من الباحثين من يجتهد في استكمال شيء من هذا البيان المنشود.

وعلى الله قصد السبيل، وصلّى الله على نبيّنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

المراجع

١- ابن الأزرق، أبو عبدالله محمد الأندلسي. **بدائع السلك في طبائع الملك**. دراسة وتحقيق: محمد بن عبد الكريم، تونس: الدار العربية للكتاب، (د.ت.).

٢- ابن حنبل، أحمد. **مسند الإمام أحمد بن حنبل**. تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وعادل مرشد وسعيد اللحام، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١، ١٩٩٩م.

٣- ابن خلدون، عبد الرحمن. **مقدمة ابن خلدون**. تحقيق: علي عبد الواحد وافي، القاهرة: مكتبة نهضة مصر، (د. ت.).

٤- ابن عاشور، محمد الطاهر. **التحرير والتنوير**. تونس: دار سحنون للنشر والتوزيع، ١٩٩٧م.

٥- ابن عاشور، محمد الطاهر. **تفسير التحرير والتنوير**. تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤م.

٦- ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر. **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**. بيروت: دار الكتاب اللبناني، ط٢، ١٩٧٣م.

٧- الأصفهاني، الراغب. **معجم ألفاظ القرآن الكريم**. تحقيق: إبراهيم شمس الدين، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٧م.

٨- الأصفهاني، الراغب. **مفردات ألفاظ القرآن الكريم**. تحقيق: صفوان داوودي، دمشق: دار القلم، بيروت: الدار الشامية، ٢٠٠٩م.

٩- الإيجي، عضد الدين عبد الرحمن بن أحمد. **المواقف في علم الكلام**. القاهرة: مكتبة المتنبي، (د. ت.).

١٠- باشا، أحمد فؤاد وآخرون. **المنهجية الإسلامية**. القاهرة: المعهد العالمي للفكر الإسلامي ودار السلام، ٢٠١٠م.

١١- البخاري، الإمام محمد بن إسماعيل. **صحيح البخاري**. دمشق: دار ابن كثير، ط١، ٢٠٠١م.

١٢- البخاري، محمد بن اسماعيل. **الجامع الصحيح**. بيروت: دار طوق النجاة، ط١، ١٤٢٢هـ.

١٣- بن أنس، مالك. **موطأ الإمام مالك**. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، القاهرة: مصطفى البابي الحلبي، ١٩٨٥م.

١٤- بن حنبل، الإمام أحمد. **مسند أحمد بن حنبل**، الرياض: دار الأفكار، ١٩٩٤م.

١٥- بن حنبل، الإمام أحمد. **مسند الإمام أحمد بن حنبل.** تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، بيروت: مؤسسة الرسالة، ٢٠٠١م.

١٦- بن عبد الوهاب، محمد. **كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد.** صححه وقابله على النسخة الخطية ٨٦/٤٦٥ بالمكتبة السعودية: كل من عبد العزيز السعيد، وأحمد كحيل، ولبيب السعيد، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، (د.ت.).

١٧- بن نبي، مالك. **شروط النهضة**. ترجمة: عبد الصبور شاهين وعمر كامل مسقاوي، دمشق: دار الفكر، ١٩٧٩م.

١٨- البنا، حسن. **رسالة العقائد**. عناية: ماجد الدرويش، طرابلس، لبنان: دار مكتبة الإيمان، ٢٠٠١م.

١٩- الدارمي، عبد الله بن عبد الرحمن. **مسند الدارمي، المعروف بسنن الدارمي**. تحقيق: حسين سليم الداراني، الرياض: دار المغني، ١٤٢٠هـ.

٢٠- الرازي، فخر الدين. **التفسير الكبير**. بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط٤، ٢٠٠١م.

٢١- الرازي، فخر الدين. **المطالب العالية من العلم الإلهي: "وهو المسمى في لسان اليونانيين "باثولوجيا" وفي لسان المسلمين "علم الكلام" أو "الفلسفة الإسلامية."** تحقيق: أحمد حجازي السقا، بيروت: دار الكتاب العربي، ط١، ١٩٨٧م.

٢٢- الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب. **معجم الطبراني الأوسط**. تحقيق: طارق بن عوض الله وعبد المحسن الحسيني، القاهرة: دار الحرمين، ١٤١٥هـ.

٢٣- عبده، محمد. **رسالة التوحيد**. تحقيق: محمد عماره، القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٤م.

٢٤- العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر. **فتح الباري شرح صحيح البخاري**. القاهرة: دار الريان للتراث، ١٩٨٦م.

٢٥- العقاد، عباس محمود. **الله: كتاب في نشأة العقيدة الإلهية**. القاهرة: دار المعارف، ط٧، (د. ت.).

٢٦- الغزالي، أبو حامد. **الأربعين في أصول الدين**. صححه وخرج أحاديثه: عبد الله عبد الحميد عرواني، دمشق: دار القلم، ٢٠٠٣م.

٢٧- قطب، سيد. **في ظلال القرآن**. القاهرة: دار الشروق، ١٩٧٩م. مجلد ٢، ج ٦.

٢٨- الماتريدي، أبو منصور محمد بن محمد بن محمود. **كتاب التوحيد**. تحقيق: بكر طوبال أوغلي، ومحمد أروشي، بيروت: دار صادر، واستانبول: مكتبة الإرشاد، ط١، ٢٠٠٧م.

٢٩- المحاسبي، أبو عبد الله الحارث بن أسد. **الرعاية لحقوق الله**. تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، القاهرة: دار الكتب الحديثة، ط٣، ١٩٧٠م.

٣٠- ملكاوي، فتحي حسن. "التزكية في منظومة القيم الحاكمة"، **إسلامية المعرفة**، ع٥٧، صيف ٢٠٠٩م، ص٥-١٢.

٣١- ملكاوي، فتحي حسن. "العمران في منظومة القيم الحاكمة"، **إسلامية المعرفة**، ع٥٩، خريف ٢٠١٠م، ص٥-٢٤.

٣٢- ملكاوي، فتحي حسن. "ملحوظات حول الدراسات الخلدونية"، **إسلامية المعرفة**، ع٥٠، خريف ٢٠٠٧م، ص٧-١٥.

٣٣- ملكاوي، فتحي حسن. **منهجية التكامل المعرفي**، هيرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ٢٠١١م.

٣٤- النجار، عبد المجيد. "الإيمان والعمران"، **إسلامية المعرفة**، ع٨، أبريل ١٩٩٧م، ص٣٩-٨٤.

٣٥- النجار، عبد المجيد. "دور الإصلاح العقدي في النهضة الإسلامية"، **إسلامية المعرفة**، ع١، ١٩٩٥م، ص٥٧-٩٤.

٣٦- النجار، عبد المجيد. **الإيمان بالله وأثره في الحياة**. بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٧م.

٣٧- النجار، عبد المجيد. **الإيمان بالله وأثره في الحياة**. بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٩٩٧م.

٣٨- النسابوري، الإمام مسلم بن الحجاج. **صحيح مسلم**، الرياض: بيت الأفكار الدولية، ١٩٩٨م.

٣٩- النووي، أبو زكريا يحي بن شرف. **شرح النووي على مسلم**. دمشق: دار الخير، ١٩٩٦م.

٤٠- النووي، يحيى بن شرف الدين. **رياض الصالحين**. القاهرة: دار الريان للتراث، ١٩٨٧م.

٤١- النيسابوري، مسلم بن الحجاج القشيري. **صحيح مسلم**، الرياض: بيت الأفكار الدولية، ١٩٩٨م.

٤٢- النيسابوري، مسلم بن الحجاج. **صحيح مسلم**. بيروت: دار ابن حزم، ط١، ١٩٩٥م.

٤٣- وافي، علي عبد الواحد. **الاقتصاد السياسي**. القاهرة: المطبعة السلفية، ط٣، ١٩٣٩م.

المراجع الأجنبية

1- Moreland, J. P., and William Lane Craig. *Philosophical Foundations for a Christian Worldview*. Downers Grove, Ill.: InterVarsity Press, 2003.

2- Schwarz, John. *The Complete Guide to the Christian Faith*. Minneapolis. MN: Bethany House Publishers, 2001.

3- al-Faruqi, Ismail R. *Al-Tawhid: Its implications for Thought and Life*. Herndon, VA. IIIT. Fifth printing, 2000.

4- Tonybee, Arnold. *A Study of History: The Growths of Civilizations*. New York: Oxford University Press, 1962.

الكشاف

ق

ك

ل

م

ن

هـ

و

ي

تم بحمد الله

هذا الكتاب



يتفق معظم الناس، على اختلاف عقائدهم وتعدد أنظمة حياتهم، على ضرورة ضبط حياة الإنسان بعدد من القيم التي توجه تصوره وسلوكه، فما القيم التي يتفق الناس على ضرورة قيام حياتهم عليها؟ وكيف تتعاضد هذه القيم فيما بينها لتشكل منظومة قيمية تتكامل عناصرها؟ وكيف نميز بين مستويات القيم فنقدم بعضها في الترتيب والأهمية، أو نلاحظ أن بعضها فرع مشتق عن أصل؟ وما معيار الترتيب في الأهمية أو تحديد الأصل والفرع؟

وإذا كانت ثلاثية التوحيد والتزكية والعمران هي منظومة للقيم العليا، في الرؤية الإسلامية للعالم، تشتق منها سائر القيم، فكيف تعمل هذه المنظومة على ضبط حياة الإنسان في مجالات الاعتقاد، وتربية النفس، وتشكيل الشخصية الإنسانية، وبناء نظم الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية...، وتحديد علاقة مجتمع ما بالمجتمعات الأخرى؟ وما الذي يؤكد الصفة الإنسانية العالمية لهذه المنظومة؟

هذا الكتاب محاولة للإجابة عن هذه الأسئلة معتمداً على المرجعية القرآنية.



فتحي حسن ملكاوي

من مواليد الأردن عام 1943م. دكتوراه في التربية العلمية وفلسفة العلوم من جامعة ولاية ميتشجان الأمريكية. عمل في التعليم العام والتدريس الجامعي مدة ثلاثين عاماً، ثم تفرّغ للعمل الفكري منذ عام 1996م.

يعمل حالياً مديراً إقليمياً في المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ورئيساً لتحرير مجلة إسلامية المعرفة، وعضواً في مجمع اللغة العربية الأردني.

شارك في تأليف أو تحرير حوالي أربعين كتاباً، له ما يزيد عن مائة بحث، نشرت في المجلات المحكمة، أو عرضت في مؤتمرات علمية إقليمية ودولية.

البريد الإلكتروني fathi@malkawi.com.

ISBN 978-1-56564-615-5